تأويل مشكلات البخاري

ويليه

شرح أبيات لبعض السادات

تأليف الشيخ الإمام

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المالكي الأشعري

(832 - 895 هـ)

تحقيق

نزار حمادي

المركز العربي للكتاب

الشارقة

تأويل مشكلات البخاري

وَيليه

شرح أبيات لبعض السادات

تأليف الشيخ الإمام

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المالكي الأشعري

(832 - 895 هـ)

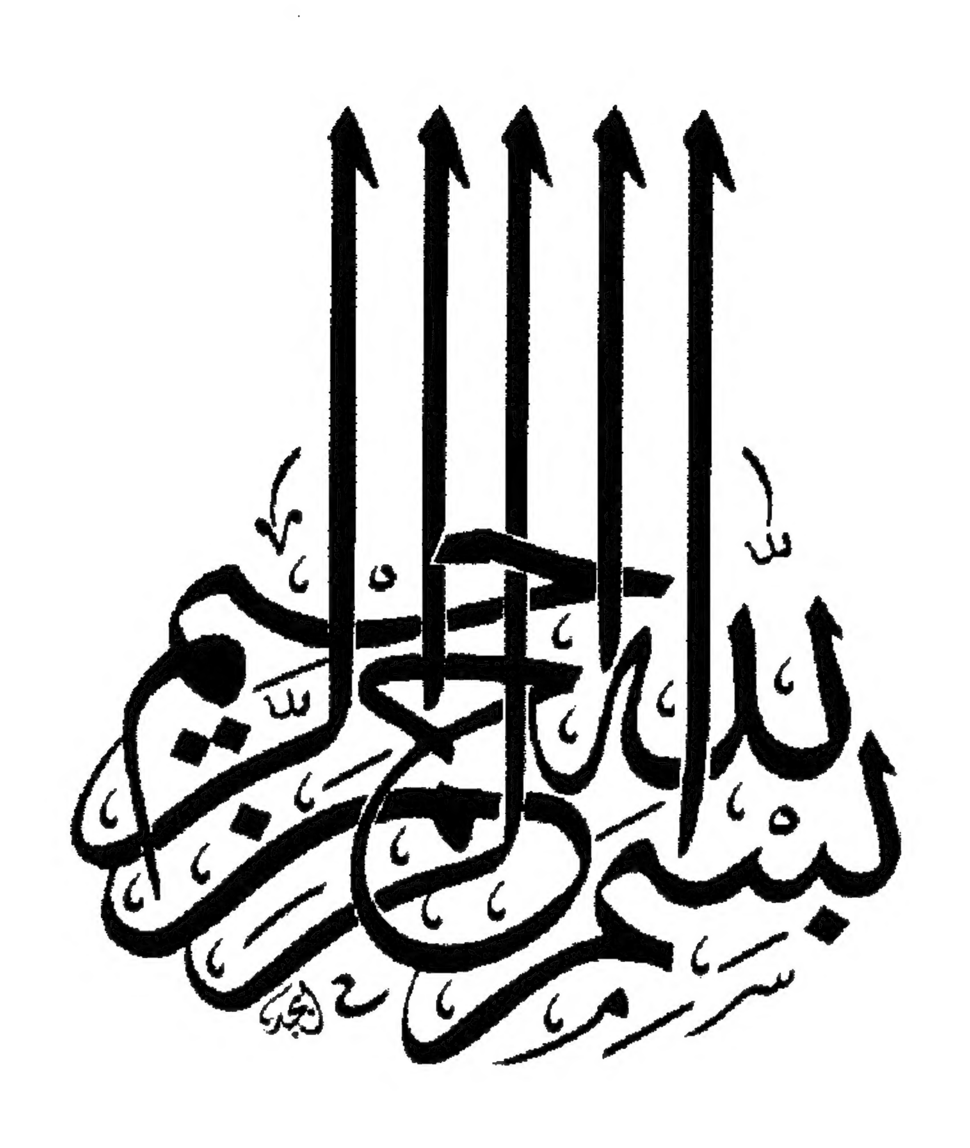
تحقيق

نزار حمادي

المركز العربي
للكتاب

الشارقة

تَأْوِيلُ مُشْكِلَاتِ الْبُخَارِي



الطبعة الأولى

1436هـ ـ 2015م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكمل الدين، وأوضح سبيل المهتدين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ مَنْ به خُتِمَت النُّبوَّات والرسالات، سيِّدنا محمَّدٍ أفضل المخلوقات، وعلىٰ آله وأصحابه الأئمة الهداة.

وبعد، فإنَّ نبيّنا محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلَّغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصَح الأمّة، وكشف الغُمَّة، وجاهد في الله حقّ الجهاد، وبيّن طريق الحقّ والرشاد، وترَك أُمَّتَه علىٰ المَحَجَّة البيضاء، وأوْرَثهُم السُّنَّة الغرَّاء، فقام العلماء بها أتمَّ القيام، وشرحوا معانيها وكشفوا مُشْكِلَها ونشرُوا أنوارَها بين الأنام، فصَدق عليهم بذلك قوْلُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَرِثُ هَذَا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ** »[1].

قال الإمام النووي: «هذا إخبارٌ منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصيانة العِلْم وحِفْظِه وعدالَةِ ناقِلِيه، وأنّ الله تعالىٰ يوفِّق له فى كلِّ عَصْرٍ خلفاء مِنَ العدول يحمِلُونَه وينْفُونَ عنه التحريفَ وما بعده فلا يضيعُ، وهذا تصريحٌ بعدالة حامليه فى كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهذا من أعلام النُبوَّة»[2].

---

(1) أخرجه الحافظ البيهقي في السنن الكبرىٰ برقم 20911.

(2) تهذيب الأسماء واللغات، (ج1/ ص17 طبعة دار الكتب العلمية)

فقد دلّ هذا الخبرُ النبويُّ الذي حسَّنه العلماء لكثرة طرقه وصحة معناه ومطابقته للواقع على حاجة عامة المسلمين إلى علماء الدين، لا سيما وأن الله تعالى قد أراد ببالغ حكمته أن يوجَد في مصادر التشريع قرآنًا وسُنَّةً مُحكَمُ الكلام البيّن الدلالة الواضح المعاني الذي لا يكاد يختلف فيه العقلاء، ومتشابِهُهُ الذي يقع الخلاف حوله ولا يظهر معناه المرادُ إلا بالنَّظر الصحيح ومزيد التأمُّل والتفكُّر، ولا يتحقَّقُ ذلك إلا للمتبحرين في العلوم المحفوفين بتوفيق الله تعالى.

وإلى ذلك يشير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد أشار الإمام «ابنُ عرَفة» رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جهود الراسخين في العلم في توجيه المتشابهات توجيهًا صحيحًا بقوله: «وأهل السُّنة يتبعون المتشابه، لكنَّ المتشابه له لفظٌ ظاهرٌ ومدلولٌ، فأهلُ السُّنة يتبعونه قصدًا لصَرْفِه إلى معناه مِن الصواب، والمبتدعة يتبعون ظاهرَ لَفْظِه[1]».

وقال أيضا: «الألفاظ المُوهِمة إذا وردت مِن الشارع تُأوِّلَت ورُدَّت الى الصواب، وإنْ وردت من غيره لم تُتأوَّل؛ لأنَّ الشارع يذكر الألفاظ الموهمة

(1) تقييد الأبي (ص 11 تحقيق د. العلوش)

للابـتلاء بهـا؛ فـ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾[فـاطر: ٨] ، فالــمُحِقُّ يَصْرِفُها عن ظاهِرها إلىٰ الصواب، والـمُبطِلُ يَقِفُ مع الظاهر»[1].

ومـا يـصدق علـىٰ القـرآن العظـيم يـصدق علـىٰ أحاديـث رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكما أسس العلماء علمَ مُشْكِلِ القرآن وألَّفوا فيه مؤلفات مستقلة، كذلك أسسوا علم مشكِل الحدِيثِ عندما دعت الحاجة إلىٰ ذلك، وهو العلم الذي به يُنفَىٰ عن حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما يُتوهَّمُ من الاختلاف والإشكال والتعارض والتناقض، وبه يُردُّ علىٰ الطاعنين فيه، وتُستخرَجُ دقائق معاني كلامِه الجامع للأحكام والحِكَم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وألفوا في ذلك أيضا كتبا نافعة قيمة، كما نثروا الكثير من دُرَرِهِ في تفاسيرهم وسائر مؤلفاتهم.

ولدقة علم مشكل الحديث قال فيه الحافظ ابن الصلاح: «إنما يَكْمُل للقيام به الأئمةُ الجامِعُون بَيْنَ صناعتي الحديث والفِقْهِ، الغوَّاصُونَ علىٰ المعاني الدقيقة»[2].

وقد تنبّه الأوائل إلىٰ وجود أحاديث نبوية يشكِلُ فَهْمُهَا علىٰ بعض الناس ويحتاج لتأويلها وتوجيهها التوجيه الصحيح، ومِنْ أبرزهم الإمام الحافظ الحُجَّة محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح، ولذا فتح باب التأويل

---

(1) تقييد الأبي، (ج2/ ص 728 تحقيق د. المناعي)

(2) معرفة أنواع علم الحديث «مقدمة ابن الصلاح» (ص 384)

والتوجيه لمعاني كلام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك في مواضع من صحيحه لا سيما برواية الفِرَبْرِي، منها ما ورد في كتاب التفسير، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، عند قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَقَدْ عَجِبَ اللهُ - أَوْ ضَحِكَ**[1] **- مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ**»، قال الإمام أبو عبد الله البخاري: «معنىٰ الضَّحِكِ: الرَّحْمَة». قال الإمام الخطابي بعد إيرادِه معلِّقا علىٰ تأويل البخاري: «**قولُ أبي عبد الله قَرِيبٌ**، وتأويلُه علىٰ معنىٰ الرِّضَا لِفِعْلِهِما أَقْرَبُ وأَشْبَهُ»[2]، ثم بيّن الخطابي وجه اختياره للتأويل المذكور.

وقد أورد الحافظ ابن حجر العسقلاني كلا التأويلين، ثمّ وجّه ما ذهب إليه الخطابي قائلا: «قُلْتُ: وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّحِكِ الإِقْبَالُ بِالرِّضَا تَعْدِيَتُهُ بِـ«إِلَىٰ»؛ تَقُولُ: ضَحِكَ فُلَانٌ إِلَىٰ فُلَانٍ، إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ طَلِقَ الوَجْهِ مُظْهِرًا

---

(1) **قال الإمام الخطابي**: الضحك الذي يعتري البشَر عندما يستخفُّهم الفرحُ أو يستفزّهم الطرب غير جائزٍ علىٰ الله سبحانه، وهو منفيٌّ عن صفاته، وإنما هو مثَلٌ ضربه لهذا الصنيع الذي يحلُّ محلَّ العجب عند البشر فإذا رأوه أضحكهم. ومعناه في صفة الله سبحانه: الإخبار عن الرضا بفعل أحدهما والقبول للآخر، ومجازتهما عن صنيعهما الجنَّةَ مع اختلاف أحوالهما وتباين مقاصدهما. (أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، ج2/ ص1365 ط1. 1409هـ/ 1988م جامعة أم القرىٰ)

(2) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، (ج3/ ص1369)

لِلرِّضَا عَنْهُ»[1]، وفي باب الحديث المذكور عاد الحافظ ابن حجر ووَفَّق بين تأويل البخاري وتأويل الخطابي قائلا: «قُلْتُ: الرِّضَا مِنَ اللهِ يَسْتَلْزِمُ الرَّحْمَةَ، وَهُوَ لَازِمُهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ»[2].

وعلىٰ نهج الإمام البخاري والحافظ الخطّابي سار أئمة أهل السُّنة في تأويل لمشكل الحديث، ومن ذلك قول القاضي عياض في شرح قوله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**»، فقالوا : كيف يا رسول الله؟ قال : «**يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** عَزَّوَجَلَّ **فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ القَاتِلِ فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله** عَزَّوَجَلَّ **فَيُسْتَشْهَدُ**»[3]: «الضَّحِكُ هنا استعارة فى حَقِّ الله، ولا يجوز عليه الضحك المعلوم ؛ لأنه إنما يصح من الأجسام وممن يجوز عليه تغيُّر الحالات، والله تعالىٰ منزَّهٌ عن ذلك، وإنما يرجع إلىٰ الرضا بفِعْلِهِمَا والثواب عليه والإحسان إليهما، أو حَمْدِ فِعْلِهما ومَحَبَّتِه، وتلَقِّي رُسُلِ الله لهما بذلك؛ لأن الضحك إنما يكون من أحدنا عند موافقة ما يراه وسروره به وبِرِّهِ لمن يلقاه، وقد تقدم الكلام عليه مشبعا فى صدر الكتاب»[4].

---

(1) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (ج6/ ص40 طبعة دار المعرفة، 1379هـ)

(2) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر (ج7/ ص633)

(3) البخاري في الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم؛ ومسلم في الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة

(4) إكمال المعلم لفوائد مسلم، (ج1/ ص558)

فكل هذا يشير إلىٰ أن العلماء الأوائل قد وضعوا اللبنات الأولىٰ لعلم مشكل الحديث واعتنوا به في مؤلفاتهم، ثم سخّر الله تعالىٰ للأمَّةِ في كلّ جيل من يقوم بهذا العلم أتمّ القيام، ومن أبرزهم في القرن التاسع الهجري الشيخ الإمام العالم الوليُّ الصالح **أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي**[1] (832 ـ 895هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإضافةً إلىٰ قيامه بتجديد علم أصول الدين قد غاص في أسرار حديث سيِّد المرسلين صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما حصَّله مِن حظ وافرٍ في العلوم العقلية والنقلية[2]، فكان من جملة مؤلفاته النفيسة النافعة رسالة حلّ فيها مشكلات الحديث الواردة في صحيح الإمام البخاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لا سيما في مسائل العقائِد، وأورد من جواهر المعاني وأسرار الفهوم ما يستحسنه أولو الألباب ويسرّ به الراسخون في العلم.

أثبت الشيخ الملالي هذه الرسالة تأليفا مستقلا لشيخه السنوسي وإن أوردها كاملة في مناقبه القدوسية، فقال عند تعداده لمؤلفات الإمام السنوسي:

---

(1) للوقوف علىٰ ترجمته تفصيلا يراجع كتاب المواهب القدوسية في المناقب السنوسية، للشيخ الملالي؛ تحقيق علال بوربيق، دار كردادة، الجزائر، 2011م؛ والبستان لابن مريم (ص237 ـ248)؛ وكفاية المحتاج للتنبكتي (ج2/ 200 ـ 209)، وكتاب ثلاث عقائد أشعرية للإمام السنوسي، دراسة وتحقيق الدكتور خالد زهري، نشر نركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، ط1. 2012م.

(2) قال الإمام السنوسي: كلام من أوتي جوامع الكَلِم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحاط بفوائده، يُنفق فيه ذو السعة في العلم علىٰ قدْر سَعته، ومَن دونه علىٰ قدره، والكلُّ لم يحصّلوا من ذلك البحر الزاخر الذي لا يحاط بأبعاده إلا ما هو في النسبة كنقطة أو أقلّ منها إلىٰ العالَم كلِّه. (مكمل الإكمال، ج1/ ص136)

ومنها «**شرحه لمشكلات وقعت في آخر البخاري**» كقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في شأن جهنم أعاذنا الله منها: «**حتىٰ يضع الجبار فيها قدمه**»، وكقوله أيضا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**»، ونحو ذلك من المشكلات التي لا تحمل علىٰ ظاهرها، وهو شرح جليل مختص، فيه نحو الكراسين والله أعلم»[1].

وقد رأىٰ صديقنا الفاضل الدكتور البحّاثة **خالد زَهْري** حفظه الله تعالىٰ أن يسند إليّ تحقيق هذه الرسالة بعد أن عزم علىٰ فعل ذلك بل وشرع فيه، فقبلتُ ذلك منه لأنّ الاشتغال علىٰ كتب الإمام السنوسي شرف عظيم، فشكر الله تعالىٰ له حسن ظنِّه وجميل عونه، إذ لم يزل لي سندًا وعُضدًا في العناية بتراثنا العلمي جزاه الله عنا خير الجزاء.

هذا، وقد أردفتُ رسالة تأويل مشكلات البخاري برسالة أخرىٰ للإمام السنوسي وهي شرحه علىٰ أبيات عرفانية قال الملالي أنها تنسب لأبي إسحاق الألبيري المتوفىٰ في حدود (460هـ) وقد أوردها ابن العريف الصنهاجي (ت536هـ) في كتابه محاسن المجالس[2] مع اختلاف في بعض الكلمات، وفي هذا الشرح يتجلىٰ مرة أخرىٰ علوّ مقام الإمام السنوسي في

---

(1) **المواهب القدوسية في المناقب السنوسية**، تحقيق علال بوربيق، دار كردادة، الجزائر، 2011، ص 359 ـ 360.

(2) محاسن المجالس (ص85 ـ 86) تحقيق د. محمد العدلوني الإدريسي، طبعة دار الثقافة بالمغرب.

استخراج درر معاني الكلام وقدرته على استنباط المفاهيم الكثيرة من الكلمات القليلة.

النسخ المعتمدة في تحقيق تأويل مشكلات البخاري:

- النسخة الخزانة الملكية بالمغرب الأقصى، تحمل رقم «6414»: تقع ضمن مجموع، من الورقة 31 ب إلى 58 أ. وإليها الإشارة بالحرف (أ).

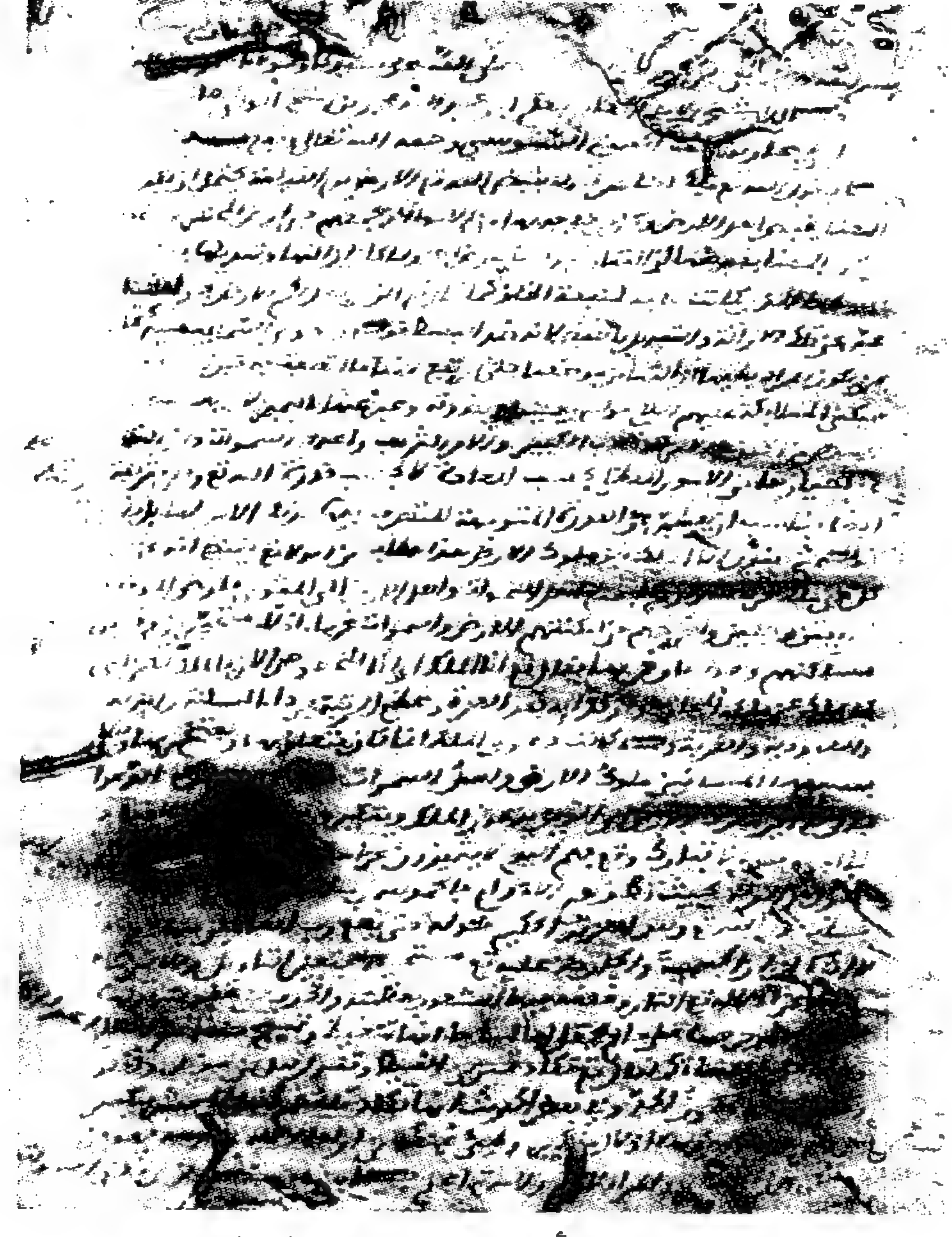
- النسخة الخزانة الملكية بالمغرب الأقصى، تحمل رقم 6451:

مكتوبة بخط مغربي، بيد محمد بن أبي الفضل خروف التونسي، وفرغ منها، بمدينة فاس، عند فجر يوم السبت 29 ربيع الثاني عام 949 هـ. وإليها الإشارة بالحرف (ب).

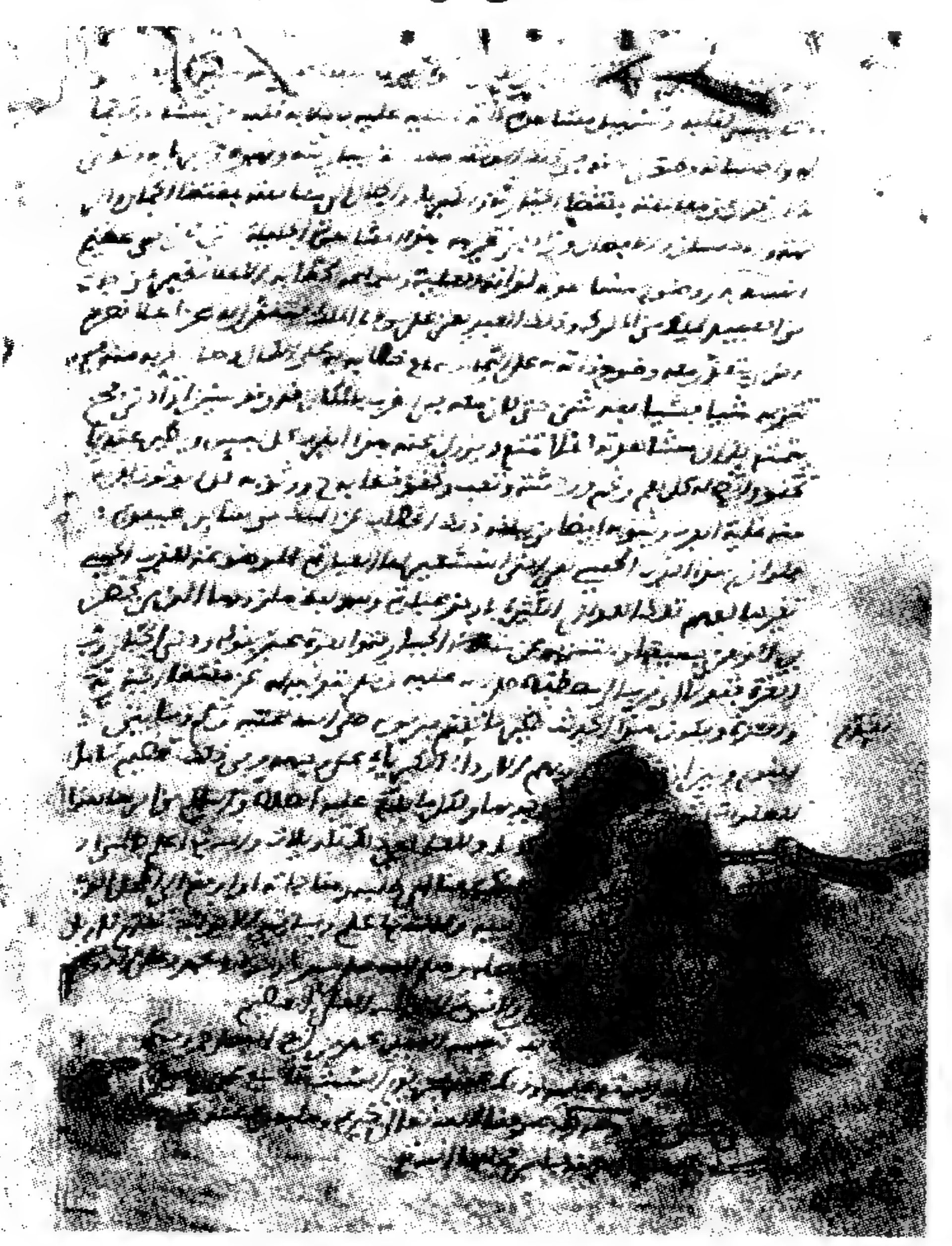
نماذج من النسخ المخطوطة:

الصفحة الأولى من النسخة (أ)

الصفحة الأخيرة من النسخة (أ)



الصفحة الأولى من النسخة (ب)



الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)

النسخ المعتمدة في تحقيق شرح أبيات لبعض السادات:

- **النسخة** (أ) نسخة المكتبة الوطنية بتونس ضمن مجموع رقم 12560 تقع بين الروقة 11 إلىٰ الورقة 23 خطها مغربي وناسخها عثمان بن أحمد الورغي بتاريخ يوم الجمعة التاسع من صفر سنة 1182 هـ.

- **النسخة** (ب) نسخة المكتبة الوطنية بتونس برقم 22668 وهي ضمن كتاب المواهب القدوسية في المناقب السنوسية للشيخ الملالي، وقد ساقها كاملة.

نماذج من النسخ المخطوطة:

الصفحة الأولى من النسخة (أ)

الصفحة الأخيرة من النسخة (أ)

الصفحة الأولى من النسخة (ب)

الصفحة الأخيرة من النسخة (ب)

تَأْوِيلُ مُشْكِلَاتِ البُخَارِيِّ

تأليف الشيخ الإمام

أبي عبدالله محمد بن يوسف السَّنوسي المالكي الأشعري

(832ـ895هـ)

تحقيق

نزار حمادي



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ العَالِمُ العَلَّامَةُ أَبُو عَبْدِ اللهِ سَيِّدِي مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ السَّنُوسِيُّ رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ

بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: ٢].

قوله: «يَقْبِضُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الـمَعْنِيُّ: يَقْبِضُ أَهْلَ الأَرْضِ وَكُلَّ[2] مَنْ فِي جَوْفِهَا مِنَ الأَمْوَاتِ، وَيَجْمَعُهُمْ فِي أَرْضِ الـمَحْشَرِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الـمَعْنِيُّ بِقَبْضِهَا: إِزَالَتَهَا مِنْ مَوْضِعِهَا[3] وَتَبْدِيلُهَا بِأَرْضٍ أُخْرَىٰ[4].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾[الناس: ٢]، رقم (7382) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**».

قال الشيخ **أحمد بن إسماعيل الكوراني**: ليس هناك جارحة، تعالىٰ عن ذلك علوا كبيرًا، وإنما المراد القدرة الكاملة، فإنَّ اليمين في الإنسان أقوىٰ الجانبين. وخصَّه بالسماء لأنه أعظم من الأرض. (الكوثر الجاري إلىٰ رياض أحاديث البخاري، ج11/ ص419 طبعة دار الكتب العلمية، 2012م)

(2) كل: ليست في (أ)

(3) من موضعها: ليس في (أ)

(4) في (أ): بالأرض الأخرىٰ

وَلَـمَّا كَانَتْ إِزَالَتُهَا وَتَبْدِيلُهَا بِرَفْعِ بَسْطِهَا الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ لِـمَنْفَعَةِ الخَلْقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، عَبَّرَ عَنْ تِلْكَ الإِزَالَةِ وَالتَّبْدِيلِ بِالقَبْضِ؛ لِأَنَّهُ ضِدُّ البَسْطِ.

وَقَوْلُهُ: «**وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ**» يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الـمُرَادُ بِطَيِّهَا إِزَالَتُهَا أَيْضًا مِنْ مَوْضِعِهَا[1] حَتَّىٰ يَرْتَفِعَ مِنْهَا مَا اتَّصَفَتْ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ بَسْطِهَا[2] لِسُكْنَىٰ الـمَلَائِكَةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ[3].

وَقَوْلُهُ: «**بِيَمِينِهِ**» يَعْنِي بِقُدْرَتِهِ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِاليَمِينِ لِأَنَّ بِهَا يَتَصَرَّفُ القَادِرُ فِي الخَلْقِ فِي الأَمْرِ الصَّعْبِ الكَبِيرِ وَالأَمْرِ الشَّرِيفِ، وَإِعْدَامُ السَّمَاوَاتِ وَإِزَالَتُهَا مِنْ أَحْيَازِهَا مِنَ الأُمُورِ العِظَامِ بِحَسَبِ العَادَةِ، لَا بِحَسَبِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ شَرِيفَةٌ أَيْضًا[4]، فَنَاسَبَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنِ القُدْرَةِ الـمُتَوَجِّهَةِ إِلَىٰ التَّصَرُّفِ فِيهَا بِذَلِكَ الأَمْرِ الهَائِلِ بِاليَمِينِ، وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

---

(1) قال الإمام بدر الدين العيني: «**ويطوي السَّمَاء**» أَي: يذهبها ويفنيها. وَلَا يُرَاد بذلك طي بعلاج وانتصاب، إِنَّمَا المُرَاد بذلك الإذهاب والإفناء؛ يُقَال: انطوىٰ عَنَّا مَا كُنَّا فِيهِ، أَي: ذهَب وَزَال، وَالْأَصْلُ الحَقِيقَةُ. قَوْله: «بِيَمِينِهِ» أَي: بقُدْرَتِهِ. (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، ج23/ ص101 طبعة دار إحياء التراث العربي)

(2) بسطها: ليست في (ب)

(3) في (ب): عليهم السلام

(4) أيضا: ليست في (أ)

قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الـمَلِكُ. أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟!»[1]

هَذَا[2] الخِطَابُ[3] مِنَ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقْتَضِي أَنَّهُ جَلَّ وَعَزَّ عَزَلَ كُلَّ ذِي مُلْكٍ عَنْ مُلْكِهِ، وَأَزْعَجَ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الأَرْضِ إِلَىٰ الـمَثْوَىٰ[4] بِأَرْضِ الـمَوْقِفِ خَائِفِينَ وَجِلِينَ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ أَمْكِنَتِهِمْ لِلْأَرْضِ[5] وَالسَّمَاوَاتِ غُرَبَاءَ، أَذِلَّاءَ، مُتَحَيِّرِينَ، وَقَبَضَ مَسَاكِنَهُمْ، وَطَوَاهَا، وَخَرَّبَهَا.

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا الـمَلِكُ**»، أَيْ: أَنَا الـمَخْصُوصُ[6] الآنَ بِالـمُلْكِ لِعَزْلِ كُلِّ مَالِكٍ عَنْ مُلْكِهِ الـمَجَازِيِّ، وَارْتِدَائِهِ بَعْدَ العِزَّةِ وَعِظَمِ الرُّتْبَةِ بِرِدَاءِ الـمَسْكَنَةِ وَالذِّلَّةِ وَالعُبُودِيَّةِ وَالغُرْبَةِ.

وَلَـمَّا كَانَتْ دَعْوَىٰ الـمُلْكِ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا وَيَفْتَخِرُ بِهَا وَيَصْلُحُ بِسَبَبِهَا الـمَسَاكِينُ وَمُلُوكُ الأَرْضِ، وَأَهْلُ السَّمَاوَاتُ مُبَرَّءُونَ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟!»، أَيْنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الـمُلْكَ، وَيَتَكَبَّرُونَ بِسَبَبِهِ عَنِ الانْقِيَادِ لِـمَا أَمَرَ بِهِ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ؟! فَهُمْ[7] اليَوْمَ لَا يَتَمَيَّزُونَ عَنْ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾[الناس: ٢].

(2) لست في (أ)

(3) في (أ): خطاب

(4) في (أ): بياض بمقدار كلمة «المثوىٰ»

(5) في (أ): الأرض

(6) أي: أنا الـمُنْفَرِدُ.

(7) ليست في (أ)

أَهْلِ الـمَسْكَنَةِ، بَلْ صَارُوا فِي الخُمُولِ وَالذِّلَّةِ بِحَيْثُ[1] تَطَؤُهُمُ الأَقْدَامُ.

فَـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

بَابُ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤]

قوله: «حتَّى يَضَعَ رَبُّ العَالَـمِينَ فِيهَا قَدَمَهُ»[2]

لَا إِشْكَالَ أَنَّ الجِسْمِيَّةَ وَالجَارِحَةَ عَلَىٰ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ مُسْتَحِيلَةٌ، فَتَعَيَّنَ التَّأْوِيلُ.

وَالأَقْرَبُ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنْ إِذْلَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلنَّارِ[3]، وَخَلْقِهِ فِيهَا الشُّعُورَ بِعَظَمَتِهِ وَالخَوْفَ مِنْ عُقُوبَتِهِ تَعَالَىٰ لَهَا فِي تَعَدِّيهَا وَحِرْصِهَا عَلَىٰ مَا لَمْ يُجْعَلْ لَهَا، لِمَا جَاءَ أَنَّهَا تَتَغَيَّظُ وَتَهِيجُ حَنَقًا عَلَىٰ الكُفَّارِ وَالعُصَاةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨]، ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠]، وَتَعْلُو وَتَطْغَىٰ كَأَنَّهَا تُجَاوِزُ الحَدَّ[4].

---

(1) ليست في (أ)

(2) يشير للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] برقم (7384) عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لاَ يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ . حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ قَدْ، قَدْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلاَ تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**».

(3) في (ب): إذلاله تعالىٰ النارَ

(4) وهذا التأويل مختار الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني إذ قال: «والمختار عندي أنّ وضعَ القدَم كناية عن نظر القهر إليها؛ فإنَّ مَن وضعَ قدَمَهُ علىٰ شيء فقد بالغَ في إهانته، ويدلُّ

وَفِي بَعْضِ الحَدِيثِ أَنَّهَا تَكَادُ تَلْتَقِمُ أَهْلَ الـمَحْشَرِ، فَيَكْسِرُ اللهُ تَعَالَىٰ حِدَّتَهَا، وَيُذِلُّهَا إِذْلَالَ مُتَكَبِّرٍ وَطِيءَ عُنُقَ مَنْ أَرَادَ اللهُ إِذْلَالَهُ بِقَدَمِهِ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّعْبِيرِ بِالـمَلْزُومِ، وَالـمُرَادُ لَازِمُهُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ[1].

بَابُ قَوْلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾

[الأنعام: ٧٣]

قَوْلُهُ: «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ»[2].

النُّورُ جِسْمٌ أَوْ عَرَضٌ، وَمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ مُنَزَّهٌ عَنْهُمَا، فَوَجَبَ التَّأْوِيلُ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَىٰ اسْمِ الفَاعِلِ، أَيْ: أَنْتَ مُنَوِّرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، أَيْ: خَالِقُ مَا فِيهِمَا مِنَ الأَنْوَارِ الحِسِّيَّةِ، أَوْ مُنَوِّرُ أَهْلِهَا، أَيْ: هَادِيهِمْ[3]، وَخَالِقُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَنْوَارٍ مَعْنَوِيَّةٍ مِنَ الـمَعَارِفِ وَالعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ وَالكَسْبِيَّةِ.

عليها قوله: «فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ»؛ إذ لو كان المراد من القدَم طائفةٌ من الخلق قدَّمهم للنار لم يكن للانزواء معنىً. (الكوثر الجاري، ج11/ ص421)

(1) والله تعالىٰ أعلم: ليس في (أ)

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[الأنعام: ٧٣] برقم (7385)

(3) واختاره الإمام الطبري في تفسير حيث قال: «يعني ـ تعالىٰ ذكره ـ بقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: هادي مَن في السماوات والأرض، فَهُمْ بنُورِه إلىٰ الحقِّ يهتدون، وبهُدَاهُ مِنْ حَيْرَة الضلالة يعتصمون». (جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج17/ ص295)

قَوْلُهُ: «فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ»[1]

لَا شَكَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْصُومٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَمِنْ كُلِّ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ، وَكَذَا سَائِرُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَوَجَبَ التَّأْوِيلُ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِتَعْلِيمِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الذَّنْبُ، أَوْ قَالَهُ تَوَاضُعًا لِلَّهِ وَإِظْهَارًا لِغِنَاهُ سُبْحَانَهُ[2] عَنِ الأَعْمَالِ، فَلَا ثَوَابَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا ـ قُدِّمَ أَوْ أُخِّرَ ـ إِلَّا بِمَغْفِرَتِهِ وَعَظِيمِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، لَا بِقُرْبٍ مِنْهُ وَاسْتِحْقَاقٍ وَإِدْلَالٍ[3].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا شَهِدَ مِنْ جَلَالِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَجَمَالِهِ مَا لَا يُمْكِنُ إِحْصَاؤُهُ وَلَا[4] الإِحَاطَةُ بِهِ حَتَّىٰ يَسْتَحْضِرَ العَبْدُ فِي عِبَادَتِهِ لِمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ وَذِكْرِهِ لَهُ جَمِيعَ ذَلِكَ، رَأَىٰ أَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ تَقَعُ ـ مُتَقَدِّمَةً أَوْ مُتَأَخِّرَةً ـ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقَعَ إِلَّا نَاقِصَةً، بِاعْتِبَارِ النَّظَرِ إِلَىٰ عَظَمَةِ المَوْلَىٰ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣] برقم (7385)

(2) في (ب): تعالىٰ

(3) في (أ): واستدلال

(4) لا: ليست في (أ)

العَظِيمِ[1] المَعْبُودِ، فَلَا ثَوَابَ لِشَيْءٍ مِنْهَا[2] وَلَا قَبُولَ إِلَّا بِمَحْضِ فَضْلِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَمَا لَهُ مِنْ سَعَةِ الجُودِ وَالكَرَمِ[3].

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨]

النَّفْسُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الذَّاتِ، وَأَمَّا[4] النَّفْسُ الَّتِي بِمَعْنَىٰ الجِسْمِ الشَّفَّافِ المُشَابِكِ لِلْأَجْسَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا قِيلَ فِيهَا، فَمُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ المَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[5].

قَوْلُهُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ»[6]

«الغَيْرَةُ» فِي الخَلْقِ: أَنَفَةٌ وَتَأَلُّمٌ يُصِيبَانِ[7] المَخْلُوقَ بِسَبَبِ صُورَةٍ فَاحِشَةٍ تَقَعُ فِيمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ، أَوْ مُشَارَكَتِهِ لَهُ فِيمَا أُبِيحَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا[8] مُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَلَا، فَوَجَبَ التَّأْوِيلُ.

---

(1) في (ب): تعالىٰ

(2) ليست في (أ)

(3) في (ب): سعة الفضل والجود

(4) النفس... وأما: ليس في (أ)

(5) في (ب): فمستحيل عليه تعالىٰ

(6) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] برقم (7403) عن عبد الله عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ».

(7) في (أ): يصيب

(8) في (أ): وهو

وَالأَقْرَبُ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنْ لَازِمِ تِلْكَ الغَيْرَةِ[1]، وَهُوَ الـمَنْعُ مِنِ انْتِهَاكِ الحُرَمِ، وَتَشْدِيدُ عُقُوبَةِ مَنْ وَقَعَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، دُنْيَا وَأُخْرَىٰ، إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ الـمَوْلَىٰ الكَرِيمُ عَنْ ذَلِكَ[2] بِفَضْلِهِ.

قوله: «وَهُوَ وَضْعٌ[3] عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ»[4]

---

(1) قال القاضي عِياضٌ: الغَيْرَةُ في المخلوق: تغيُّر القلبِ وهيجان الحفيظة بسبب المشاركة في الاختصاص من أحد الزوجين بالآخر أو بحريمه وذبه عنهم ومنعه منهم، يقال: غار الرجلُ فهو غيور. وأمّا في حق الله فهو مَنْعُه ذلك وتحريمُه، ويدلّ عليه قوله: «مِن غيرته حرّمَ الفواحش»، وقوله: «وغيرته أن يأتي المؤمن ما حرم عليه». وقد يكون في حقّه: تغييرُه فاعلَ ذلك بعقاب الدنيا والآخرة. (راجع مشارق الأنوار، ج2/ ص141)

وقال الشيخ تاج الدين الفاكهاني: الغَيْرَةُ مشتقة من تغير حال الغَيْرانِ لِمَا رآه من قبيح فِعْلٍ من غار عليه وهيجان غضبه بسبب هتك من يذبّ عنه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المقدَّس عن تغير الذات والصفات، فمعناه: ما من أحدٍ أمنعُ للفواحش من الله، والغيور يمنع حريمَهُ، وكلّما زادت غيرته زاد منعُه، فاستعير لمنع البارئ تعالىٰ عن معاصيه اسمُ الغيرة مجازًا واتساعًا، وخاطبهم النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ما يفهمونه. (رياض الأفهام، ج2/ ص172)

(2) في (أ): يعفو الله جل وعلا

(3) «وَضْعٌ» بِفَتْحِ الوَاوِ وَسُكُونِ المُعْجَمَة بِمَعْنَىٰ مَوْضِعٌ، وَلِأَبِي ذَرّ بِفَتْحِ الضَّادِ مَاضٍ، وَفِي بَعْضِ النُّسَخِ وَضِعٌ بِكَسْرِ الضَّادِ مُنَوَّنـًا. (راجع فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (ج15/ ص339).

(4) يشير للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. برقم (7404) عَنْ أَبِىٰ هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ - هُوَ يَكْتُبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَهو وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ - إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِىٰ**» .

لَا يَصِحُّ فَهْمُهُ عَلَىٰ أَنَّهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُسْتَقِرٌّ[1] عَلَىٰ العَرْشِ وَذَلِكَ الكِتَابُ عِنْدَهُ هُنَالِكَ، لِأَنَّ الاسْتِقْرَارَ[2] بِالأَمْكِنَةِ وَالاخْتِصَاصَ بِالأَحْيَازِ مِنْ سِمَاتِ الأَجْرَامِ المُحْدَثَةِ، وَيَتَعَالَىٰ المَوْلَىٰ الأَزَلِيُّ القَدِيمُ الغَنِيُّ عَنْ سِمَاتِ الحَوَادِثِ[3].

---

(1) في (أ): مستو

(2) في (أ): الاستواء

(3) **قال الإمام ابن بطال المالكي**: «عند» فى ظاهر اللغة تقتضىٰ أنها للموضع، والله يتعالىٰ عن الحلول فى المواضع؛ لأن ذلك من صفات الأجسام إذ الحالُّ فى موضع لا يكون بالحلول فيه بأولىٰ منه بالحلول فى غيره إلا لأمر يخصِّصُ حلولَه فيه، والحلول فيه عرَضٌ من الأعراض يَفْنَىٰ بمجىء حلول آخر يحُلُّ به فى غير ذلك المكان، والحلول مُحدَثٌ، والحوادث لا تليق به تعالىٰ، لدلالتها علىٰ حدث من قامت به، فوجب صَرْفُ «عِنْدَ» عن ظاهرها إلىٰ ما يليق به تعالىٰ. (شرح صحيح البخاري، ج10/ ص427 تحقيق أبو تميم ياسر إبراهيم، مكتبة الرشد، ط2. 1423هـ/ 2003م)

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني بعد أن لخَّص كلام الإمام ابن بطال: «وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي الحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»، وَلَا مَكَانَ هُنَاكَ قَطْعًا. (فتح الباري، ج13/ ص385)

وقال أيضا في شرحه علىٰ الحديث الوارد في صحيح البخاري، باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧] برقم (3194) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَمَّا قَضَىٰ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي**»: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ أَيْ ذِكْرُهُ أَوْ عِلْمُهُ فَلَا تَكُونُ الْعِنْدِيَّةُ مَكَانِيَّةً بَلْ هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ كَوْنِهِ مَخْفِيًّا عَنِ الْخَلْقِ مَرْفُوعًا عَنْ حَيِّزِ إِدْرَاكِهِمْ. (فتح الباري، ج6/ ص291)

فَالـمَعْنَىٰ إِذًا أَنَّ[1] ذَلِكَ الكِتَابَ عِنْدَهُ عِنْدِيَّةَ اعْتِنَاءٍ، إِذِ الْعَادَةُ أَنَّ مَا تَعْتَنِي بِهِ الـمُلُوكُ عِنْدَهُمْ مِنَ الرُّسُومِ وَفِي حِفْظِهِمْ وَرَعْيِهِمْ لَا يَكِلُونَه إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ حِينَئِذٍ أَنْ يَصِلَ إِلَىٰ ذَلِكَ الـمَكْتُوبِ بِتَبْدِيلٍ أَوْ مَحْوٍ أَوْ تَغْيِيرٍ.

وَمِنْ لَازِمِ ذَلِكَ أَيْضًا، أَنْ لَا يَنْسَىٰ العَمَلَ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ الـمَكْتُوبِ، إِذْ هُوَ حَاضِرٌ عِنْدَهُ، مَذْكُورٌ، مَكْتُوبٌ، مَرْئِيٌّ.

وَقَوْلُهُ: «**عَلَىٰ العَرْشِ**» يَتَعَلَّقُ بِـ«**وَضْعٌ**»، أَيْ: ذَلِكَ الـمَكْتُوبُ مَوْضُوعٌ عَلَىٰ العَرْشِ، وَلَيْسَ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الـمُضَافِ إِلَيْهِ «**عِنْدَهُ**»[2]، وَيَكُونُ الـمَعْنَىٰ: وَهُوَ وُضِعَ عِنْدَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَالَ كَوْنِهِ مُسْتَقِرًّا عَلَىٰ العَرْشِ؛ لِفَسَادِ ذَلِكَ عَقْلًا وَصِنَاعَةً.

وَوَضْعُهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الـمَكْتُوبَ فَوْقَ العَرْشِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ تَأْمِينِ الخَلْقِ أَنْ يَقَعَ فِي ذَلِكَ الـمَكْتُوبِ تَبْدِيلٌ أَوْ تَغْيِيرٌ مِنْ شَيْطَانٍ حَاسِدٍ أَوْ غَيْرِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الـمَوْضِعَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ جَمِيعَ الـمَعَاصِي إِنَّمَا تَقَعُ فِي الأَرْضِ تَحْتَ العَرْشِ، وَتَرْفَعُ رُسُومَهَا الحَفَظَةُ إِلَىٰ مَا تَحْتَ العَرْشِ أَيْضًا، فَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ رَسْمَ سَبْقِيَّةِ الرَّحْمَةِ لِلْغَضَبِ قَدِ اسْتَعْلَىٰ فَوْقَ مُوجِبَاتِ الغَضَبِ حِسًّا، كَمَا اسْتَعْلَىٰ مَعْنًىٰ وَحُكْمًا، وَمَا اسْتَعْلَىٰ حِسًّا وَمَعْنًىٰ فَهُوَ الغَالِبُ لِـمَا تَحْتَهُ حِسًّا وَمَعْنًىٰ.

---

(1) في (أ): إلىٰ

(2) عنده: ليست في (أ)

وَأَيْضًا فَإِنَّ العَرْشَ هُوَ سَقْفُ الجَنَّةِ، فَوَضْعُ ذَلِكَ الـمَكْتُوبِ فَوْقَ سَقْفِهَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَحْتَ الحُكْمِ بِهَا، لَا[1] مِنْ آثَارِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ اسْتِحْقَاقًا، وَأَنَّهَا مُوجِبَاتٌ فِعْلَهَا كَمَا يَقُولُهُ الـمُعْتَزِلَةُ أَذَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِدْعَتَهُمْ.

وَأَيْضًا، لَـمَّا كَانَتْ رَحْمَةُ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَالَتْ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ[2] الأَرْضِ جَعَلَ رَسْمَهَا[3] فَوْقَ الجَمِيعِ عَلَىٰ العَرْشِ، تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ الحِسِّيَّةَ وَالـمَعْنَوِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ تَحْتَ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الَّتِي تَفَضَّلَ الـمَوْلَىٰ الكَرِيمُ بِكَتْبِهَا، وَاعْتَنَىٰ بِلُزُومِهَا وَتَغْلِيبِهَا عَلَىٰ الغَضَبِ.

وَأَيْضًا، يَحْتَمِلُ أَنَّ ذَلِكَ الـمَكْتُوبَ وُضِعَ فَوْقَ العَرْشِ، دُونَ سَائِرِ الجِهَاتِ، تَنْبِيهًا عَلَىٰ سُرْعَةِ وُصُولِ الرَّحْمَةِ لِـمَنْ شَاءَ سُبْحَانَهُ[4] مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لِأَنَّ وُصُولَ الشَّيْءِ النَّازِلِ مِنْ عُلُوٍّ أَسْرَعُ مِنْ وُصُولِ الشَّيْءِ الآتِي مِنْ سَائِرِ الجِهَاتِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

وَوَجْهُ الـمُنَاسَبَةِ فِي تَرْتِيبِ الكَتْبِ بِسَبْقِ الرَّحْمَةِ عَلَىٰ خَلْقِ العَوَالِمِ أَنَّهُ جَعَلَ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ بِالكِنَايَةِ الرَّحْمَةَ وَالغَضَبَ تَسَابَقَا عِنْدَ خَلْقِ العَوَالِـمِ كَفَرَسَيْ رِهَانٍ إِلَىٰ العَوَالِـمِ لِيَظْفَرَ مَنْ سَبَقَ مِنْهُمَا بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنَ

---

(1) في (أ): لأن

(2) أهل: ليست في (أ)

(3) في (أ): رحمته

(4) في (ب): تعالىٰ

العَوَالِـمِ، وَلَا يَكُونُ لِلْمَسْبُوقِ مِنْهُمَا[1] إِلَّا القَلِيلُ الَّذِي فَضِلَ عَنِ السَّابِقِ، فَسَبقَتِ الرَّحْمَةُ الغَضَبَ[2]، فَحَازَتْ مِنَ العَوَالِـمِ أَكْثَرَهَا وَهُوَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْغَضَبِ الـمَسْبُوقِ إِلَّا القَلِيلُ مِمَّنْ يَنْفُذُ فِيهِ الوَعِيدُ بِالخُلُودِ مِنْ كَفَرَةِ الجِنِّ وَالإِنْسِ، وَكَتَبَ رَسْمَ هَذِهِ السَّبْقِيَّةِ حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ الغَضَبُ أَنْ يَزِيدَ شَيْئًا عَلَىٰ هَذَا القَلِيلِ الَّذِي جَاءَ فِي نَصِيبِهِ.

فَانْظُرْ هَذِهِ الاسْتِعَارَةَ مَا أَلْطَفَهَا وَأَدَلَّهَا عَلَىٰ عَظِيمِ فَضْلِ الـمَوْلَىٰ الكَرِيمِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَسَعَةِ كَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، حَيْثُ جَعَلَ الرَّحْمَةَ سَابِقَةً لِلْغَضَبِ، وَلَوْ شَاءَ لَعَكَسَ، إِذْ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، وَلَا حَجْرَ عَلَيْهِ، وَلَا حَقَّ لِـمَخْلُوقٍ عَلَيْهِ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَـمِينَ.

---

(1) ليست في (أ)

(2) **قال القاضي عياض: «سَبقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»**: هذه استعارة لكثرة الرفق والرحمة وشمولهما علىٰ العالمين، فكأنها الغالب، ولذلك يقال: غلب علىٰ فلان حبُّ المال، وغلب عليه الكرمُ، والغالب عليه العقلُ، اي: أكثر خصاله أو أفعاله، وإلا فغضب الله تعالىٰ ورحمته صفتان من صفاته راجعتان إلىٰ إرادته ثواب المطيع وعقاب العاصي، وصفاته لا توصف بغلبة إحداها علىٰ الأخرىٰ ولا بسبقها لها، لكنها استعارة علىٰ مجاز كلام العرب وبلاغتها في المبالغة. (مشارق الأنوار، ج2/ ص133) والحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه.

قَوْلُهُ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1]

قِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَعَهُ بِالغُفْرَانِ إِذَا ظَنَّهُ حِينَ يَسْتَغْفِرُ، وَبِالقَبُولِ إِذَا ظَنَّهُ حِينَ يَتُوبُ، وَبِالإِجَابَةِ إِذَا ظَنَّهَا حِينَ يَدْعُو، وَبِالكِفَايَةِ لَهُ مِنْ هَمِّهِ إِذَا ظَنَّهَا حِينَ[2] يَسْتَكْفِي وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، لِأَنَّ هَذِهِ صِفَاتٌ لَا تَظْهَرُ إِلَّا إِذَا أَحْسَنَ ظَنَّهُ بِالمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَكَذَا يُحْسِنُ الظَّنَّ بِقَبُولِ العَمَلِ عِنْدَ فِعْلِهِ إِيَّاهُ، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ**»[3]، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْتَغْفِرِ وَالتَّائِبِ وَالدَّاعِي وَالعَامِلِ أَنْ يَأْتُوا ذَلِكَ مُوقِنِينَ بِالإِجَابَةِ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الصَّادِقِ.

وَأَمَّا لَوْ فَعَلَ هَذِهِ الأَشْيَاءَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنْ لَا تُقْبَلَ وَلَا يَنْفَعُهُ فَذَلِكَ قُنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالقُنُوطُ كَبِيرَةٌ.

وَأَمَّا ظَنُّ المَغْفِرَةِ مَعَ الإِصْرَارِ عَلَىٰ الذَّنْبِ[4]، وَرَجَاءُ[5] الثَّوَابِ مِنْ غَيْرِ العَمَلِ، فَذَلِكَ جَهْلٌ وَغُرُورٌ، وَيَجُرُّ إِلَىٰ مَذْهَبِ المُرْجِئَةِ، وَلَيْسَ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ فِي شَيْءٍ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ تَرْجِيحُ أَحَدِ الجَائِزَيْنِ لِسَبَبٍ يَقْتَضِي التَّرْجِيحَ، فَإِذَا خَلَا عَنِ السَّبَبِ فَإِنَّمَا هُوَ غُرُورٌ وَتَمَنٍّ.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] برقم (4705)

(2) ظنها حين: ليس في (أ)

(3) رواه الترمذي في جامعه برقم (3479) والحاكم في مستدركه (ج1/ ص493)

(4) في (ب): المعصية

(5) رجاء: ليست في (ب)

فَالظَّنُّ فِي الحَدِيثِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَىٰ العِلْمِ وَاليَقِينِ إِذَا رَدَدْنَاهُ لِصِدْقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيمَا وَعَدَ بِهِ عَلَىٰ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ بَابِهِ إِذَا رَدَدْنَاهُ لِنَيْلِ العَامِلِ بِخُصُوصِهِ ذَلِكَ المَوْعُودَ بِهِ.

قَوْلُهُ: «وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي»[1]

أَيْ: مَعَهُ بِالتَّأْنِيسِ بِهِ وَالغِنَىٰ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، حَتَّىٰ يَزُولَ وَحْشُهُ، وَتَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وَهَذَا لَازِمُ المَعِيَّةِ المَحْسُوسَةِ المَكَانِيَّةِ، وَثَمْرَتُهَا المَقْصُودُ مِنْهَا، فَعَبَّرَ بِهَا عَنْ لَازِمِهَا وَثَمْرَتِهَا، عَلَىٰ طَرِيقِ التَّقْرِيبِ وَالمُبَالَغَةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: «ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»[2]

أَيْ: فِي ذَاتِي، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنَىٰ أَنَّ العَبْدَ إِذَا ذَكَرَ اللهَ سُبْحَانَهُ خَالِيًا، بِحَيْثُ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، أَثَابَهُ جَلَّ وَعَلَا بِفَضْلِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] برقم (4705)

(2) التخريج السابق.

قَوْلُهُ: «ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[1]

يَعْنِي بِهِمْ الـمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالـمَعْنَىٰ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُنَوِّهُ بِاسْمِهِ فِيهِمْ، وَيَأْمُرُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُنَادِي بِذِكْرِهِ فِي مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ.

قَوْلُهُ: «وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا»[2] إِلَىٰ آخِرِهِ.

لَا شَكَّ أَنَّ الحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ مُسْتَحِيلَانِ عَلَىٰ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ صِفَاتِ الـمُحْدَثَاتِ[3]، فَوَجَبَ التَّأْوِيلُ، فَالذِّرَاعُ وَالبَاعُ[4] كِنَايَةٌ عَنْ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، وَمُقَابَلَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ بِأَكْثَرَ مِنْهُ[5].

---

(1) التخريج السابق.

(2) التخريج السابق.

(3) في (ب): الحوادث

(4) **عياض**: الباعُ والبَوْعُ والبُوعُ بالفتح والضم واحِدٌ، وهو طول ذراعي الإنسان وعَضُدَيْه وعَرْض صدره. والمراد هنا في حق الله تعالىٰ من مجيئه كذلك أو المجيء إليه وتمثيله بالذراع والباع والمشي والهرولة: مجازُ كلامِ العرب، والاستعارةُ لِمُجَازاةِ الله عَبْدَهُ عندَ طاعته له وإنابته إليه وإقباله علىٰ عبادته بقبول توبته وتيسيره لطاعته ومعونته عليها وتمام توفيقه وهدايته، والله أعلم بمراده. (مشارق الأنوار، ج1/ ص104 ـ 105)

(5) **عياض**: تقَرُّبُ الله إلىٰ عبيده بهدايته إياهم وشرحه صدورهم وتنبيهه علىٰ ما يُتقرب به إليه، وكأنّ المعنىٰ: إذا قصد ذلك وعمِلَهُ أعنته عليه وسهلته له وآتيته مما طلب ما لم يحتسب. ويكون أيضا إذا تقرب إليّ بالطاعة في الدنيا جازيته في الآخرة بأضعافها، وسمىٰ الثواب تقربا لمقابلة الكلام وتجنيسه، والشيء يسمىٰ بما كان من سببه وأجله. (مشارق الأنوار، ج2/ ص176)

وَالهَرْوَلَةُ[1] كِنَايَةٌ عَنِ الإِسْرَاعِ بِذَلِكَ الثَّوَابِ، إِذْ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ العَامِلِ[2] إِلَّا انْقِضَاءُ لَحْظَةِ العُمُرِ مَعَ مَا يُمِدُّهُ بِهِ سُبْحَانَهُ عَاجِلًا فِي حَيَاتِهِ مِنَ الكَرَامَاتِ، وَلَذِيذِ الـمُنَاجَاةِ، وَالأُنْسِ، وَالـمَحَبَّةِ، وَالشَّوْقِ، وَلَطِيفِ الـمُعَامَلَاتِ.

وَإِذَا اجْتَمَعَ لِلْعَبْدِ الضَّعِيفِ مِنَ الـمَوْلَىٰ الكَرِيمِ مُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ وَالإِسْرَاعُ بِهِ، انْحَاشَ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ إِلَىٰ جَانِبِ مَوْلَاهُ تَعَالَىٰ، وَلَازَمَ - إِنْ سَاعَدَهُ التَّوْفِيقُ - أَبْوَابَ طَاعَتِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بِلَذَّةٍ وَنَشَاطٍ إِلَىٰ أَنْ يَلْقَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الذِّرَاعَ وَالبَاعَ كِنَايَةٌ عَنْ مُطْلَقِ التَّضْعِيفِ، وَلَمْ يُؤْتَ بِهِمَا لِبَيَانِ قَدْرِ التَّضْعِيفِ، حَتَّىٰ يُسْتَشْكَلَ بِأَنَّ الذِّرَاعَ يَقْتَضِي أَنَّ مُجَازَاتَ الحَسَنَةِ بِمِثْلِهَا، لَا[3] بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا وَسَبْعِمِئَةٍ وَمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

وَلَنَا أَنْ نُجِيبَ أَيْضًا بِأَنَّ الـمُرَادَ فِي الـمُجَازَىٰ بِهِ ذِرَاعُ قُدْرَةِ اللَّـهِ وَبَاعُهَا، عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ، وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَهُمَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَالـمُجَازَىٰ عَلَيْهِ شِبْرُ العَبْدِ وَذِرَاعُهُ الضَّعِيفَانِ القَصِيرَانِ، فَعَلَىٰ هَذَا لَا يَرِدُ الإِشْكَالُ مِنْ أَصْلِهِ[4]، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

---

(1) **عياض**: الهرولة: بين المشي والعدو، ومعناه في حق الله تعالىٰ الذي لا تجوز عليه الحركة والانتقال: سرعة إجابته لعبده وقرب تقريبه من هدايته ورحمته. قال وكيع: معناه: في سرعة وإجابة. (راجع مشارق الأنوار، ج2/ ص268)

(2) في (ب): بين العامل وبينه

(3) بمثلها لا: ليست في (ب)

(4) في (أ): أصل

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨][1]

أَيْ: إِلَّا ذَاتَهُ الَّتِي لَا مِثْلَ لَهَا، وَأَمَّا الوَجْهُ الَّذِي بِمَعْنَىٰ الجَارِحَةِ فَمُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ المَوْلَىٰ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وَعبَّرَ بِالوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ لِشَرَفِ اسْمِ الوَجْهِ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ غِنَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ الخَلْقِ، وَتَنَزُّهِهِ عَنِ الانْتِفَاعِ بِوُجُودِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا أُنْسَ لَهُ بِوُجُودِهِمْ، وَلَا اسْتِيحَاشَ وَلَا هَمَّ وَلَا حُزْنَ عِنْدَ إِهْلَاكِهِمْ، لِأَنَّ المُلُوكَ يُشَاهَدُ كَثْرَةُ التَّغَيُّرِ وَالتَّبَدُّلِ[2] فِي وُجُوهِهِمْ عِنْدَ فَقْدِ خَوَاصِّهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ وَالمُتَهَالِكِينَ مِنَ العَبِيدِ فِي خِدْمَتِهِمْ، وَالوُقُوفِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عِنْدَ أَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ، حَتَّىٰ تَزُولَ وَتَهْلَكُ مَحَاسِنُ وُجُوهِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الحُزْنِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ نَفْيًا لِمَا يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨].

---

(1) قال الحافظ ابن كثير: هو إخبارٌ بأنه تعالىٰ الدام الباقي الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧] **فعبَّر بالوَجْهِ عن الذات**، وهكذا هاهنا ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]، أي: إلا إيَّاه، وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ**». (تفسير ابن كثير، ج10/ ص492)

(2) في (ب): التبدل والتغير

وَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، أَيْ: لَا تَتَغَيَّرُ ذَاتُهُ العَلِيَّةُ عِنْدَ فَنَائِهِمْ، بَلْ يَبْقَىٰ كَمَالُهُ الأَزَلِيُّ عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

بَابُ قَوْلِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]

يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «**اليَدُ**» بِمَعْنَىٰ القُدْرَةِ[1]، وَثُنِّيَتْ تَثْنِيَةَ تَكْثِيرٍ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقَاتِهَا الكَثِيرَةِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «**اليَدُ**» بِمَعْنَىٰ النِّعْمَةِ، وَثُنِّيَتْ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا مُنْحَصِرَةٌ فِي نِعْمَتَيْنِ: نِعْمَةِ جَلْبِ المَنَافِعِ، وَنِعْمَةِ دَفْعِ المَضَارِّ، وَالمَعْنَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصَاحِبًا لِنِعْمَتَيْنِ: نِعْمَةِ الجَلْبِ، وَنِعْمَةِ الدَّفْعِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «اليَدَانِ» أَحَدُهُمَا[2] يَدَ قُدْرَةٍ، وَالأُخْرَىٰ[3] يَدَ نِعْمَةٍ، بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ المُثَنَّىٰ لَا يُشْتَرَطُ فِي مُفْرَدَيْهِ اتِّفَاقُهُمَا لَفْظًا وَمَعْنًىٰ، بَلِ اتِّفَاقُهُمَا لَفْظًا فَقَطْ، وَيَكُونُ فِيهِ حِينَئِذٍ تَعْرِيضٌ بِإِبْلِيسَ أَنَّهُ خَلَقَهُ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ يَدُ القُدْرَةِ، وَلَمْ تَصْحَبْهُ يَدُ النِّعْمَةِ، بِنَاءً عَلَىٰ أَنَّ الكَافِرَ لَا يُقَالُ فِي حَقِّهِ: «مُنْعَمٌ عَلَيْهِ»؛ نَظَرًا لِمَآلِ أَمْرِهِ.

---

(1) قال الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني: اتفق القائلون بتأويل المتشابهِ علىٰ أن اليدَ في حقِّه تعالىٰ عبارةٌ عن القدرة؛ لأن اليدَ في الإنسانِ مظهر أكثر الأشياء، وحيث يطلق لفظ التثنية أو اليمين يرادُ كمال الاقتدار. (الكوثر الجاري، ج11/ ص440)

(2) ليست في (أ)

(3) ليست في (أ)

قَوْلُهُ: «وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ»[1]

الأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، وَلَكِنْ لِعَظِيمِ خَوْفِهِمْ مِنَ المَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَتَعْظِيمِهِمْ لِجَانِبِ[2] أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، يُسَمُّونَ[3] مَا هُوَ رُخْصَةٌ أَوْ وَقَعَ مِنْهُمْ نِسْيَانًا «خَطِيئَةً» تَوَاضُعًا مِنْهُمْ، وَخَوْفًا، وَهَيْبَةً، وَحَيَاءً، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ خَطِيئَةً وَلَا ذَنْبًا، بَلْ قَدْ يَكُونُ هُوَ طَاعَةً.

قَوْلُهُ: «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي»[4]

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص: ٧٥] رقم (7410) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُجْمَعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُولُونَ اسْتَشْفَعْنَا إِلَىٰ رَبِّنَا حَتَّىٰ يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَمَا تَرَىٰ النَّاسَ؟ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَالِكَ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ**» حديث الشفاعة الطويل.

(2) في (ب): لجناب

(3) في (أ): يسمىٰ

(4) التخريج السابق، وفيه: «**فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ**». قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: قَالَ الخَطَّابِيُّ: هَذَا يُوهِمُ المَكَانَ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: فِي دَارِهِ الَّذِي اتَّخَذَهَا لِأَوْلِيَائِهِ وَهِيَ الجَنَّةُ وَهِيَ دَارُ السَّلَامِ، وَأُضِيفَتْ إِلَيْهِ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ، مِثْل «بَيْتُ اللهِ» وَ«حَرَمُ اللهِ». (فتح الباري، ج13/ ص429) وأصل كلام الخطابي في شرحه علىٰ صحيح البخاري المسمىٰ بأعلام الحديث (ج4/ ص2355) وقد أورده ابن حجر ملخصا.

وقال القاضي البيضاوي: قوله: «فِي دَارِهِ» يريد به الجنة، وأضافها إلىٰ الله تعالىٰ للشَّرَف والكرامة، وبالاستئذان عليه: أن يدخل مكانًا لا يقف فيه داع إلا استُجِيبَ، ولا يقوم به سائلٌ

فِيهِ حَذْفُ مُضَافٍ[1]، تَقْدِيرُهُ: «أَسْتَأْذِنُ[2] عَلَىٰ مَحَلِّ رُؤْيَةِ رَبِّي الـمَلَكَ الـمُوَكَّلَ عَلَىٰ بَابِهِ»، وَلَعَلَّهُ الـمَوْضِعُ الَّذِي يُسَمَّىٰ فَحْصَةُ العَرْشِ: دَارٌ عَظِيمَةٌ أَوْسَعُ مِنَ الجِنَانِ كُلِّهَا، بِحَيْثُ تَسَعُ جَمِيعَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرَ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَأَكْثَرُهَا مِيَاهًا وَنِعَمًا وَبَسَاتِينَ، فِيهَا يَجْتَمِعُ جَمِيعُ أَهْلِ الجِنَانِ لِرُؤْيَةِ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ، وَلَمْ تُعَدَّ إِلَّا لِلرُّؤْيَةِ، وَلَـهَا بَابٌ عَظِيمٌ، وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ عَلَيْهَا.

وَهَذِهِ الدَّارُ الَّتِي اخْتَارَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَهَا مَحَلًّا لِلتَّمَتُّعِ بِرُؤْيَتِهِ، وَالتَّنَعُّمِ هُنَاكَ يَوْمَ الرُّؤْيَةِ بِمَا لَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، بِمَا لَا يُرَىٰ فِي سَائِرِ الجِنَانِ مِنْ جَلَائِلِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَنِعَمِهِ، مِنْ غَيْرِ حُلُولٍ بِذَاتِهِ العَلِيَّةِ هُنَالِكَ، لِتَعَالِيهِ عَنِ الاخْتِصَاصِ بِالأَحْيَازِ وَالأَمْكِنَةِ، لَكِنْ لَـمَّا كَانَ مِنْ لَازِمِ مَنِ اسْتَقَرَّ بِدَارٍ أَنْ[3] لَا يُرَىٰ عَادَةً وَلَا يُزَارَ وَلَا يُخَاطَبَ إِلَّا فِيهَا، وَيَسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ مَنْ قَصَدَ زِيَارَتَهُ،

إلا أجيب، ولم يكن بين الواقف فيه وبين ربه حجاب. (تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ج3/ ص408 دار النوادر)

وقال **الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني**: «في داره» أي: في الجنة لأن من أسمائه تعالىٰ السلام، ومن أسماء الجنة «دار السلام»؛ ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥] أو الإضافة للتشريف، ككما في قوله: ﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٣٠]. (الكوثر الجاري، ج11/ ص465)

(1) ليست في (ب)

(2) تقديره استأذن: ليس في (أ)

(3) ليست في (أ)

وَرُؤْيَتَهُ وَالشَّكْوَىٰ لَهُ وَالشَّفَاعَةَ لَدَيْهِ فِي تِلْكَ الدَّارِ، أَطْلَقَ عَلَىٰ هَذِهِ الفَحْصَةِ الَّتِي جعَلَهَا مَوْلَانَا جَلَّ وَعَلَا مَحَلًّا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَثْبَتَ لَهَا لَوَازِمَ الحُلُولِ بِالذَّاتِ مِنْ غَيْرِ حُلُولٍ لَهُ فِيهَا، أَنَّهَا دَارُهُ، وَأَنَّ الآتِي لِبَابِهَا الـمُوكَّلِ عَلَيْهِ الـمَلَكُ يَقُولُ: «**أَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي**».

قَوْلُهُ: «فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا»[1]

يَعْنِي: فَإِذَا دَخَلْتُ ذَلِكَ الـمَوْضِعَ الـمُعَدَّ لِرُؤْيَتِهِ تَعَالَىٰ، وَأُزِيلَ عَنْ عَيْنَيَّ الحِجَابُ الـمَانِعُ مِنْ رُؤْيَةِ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَخَلَقَ فِي عَيْنَيَّ البَصَرَ الـمُتَعَلِّقَ بِرُؤْيَتِهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ مِنَ التَّنَزُّهِ عَنِ الجِسْمِيَّةِ، وَالعَرَضِيَّةِ وَالحُلُولِ بِالأَحْيَازِ وَالأَمْكِنَةِ، وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا.

قَوْلُهُ: «فَأُدْخِلُهُمْ الجَنَّةَ ثُمَّ أَرْجِعُ»[2]

يَعْنِي: ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَىٰ الـمَحَلِّ الـمُعَدِّ لِرُؤْيَةِ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لِأَرَاهُ هُنَاكَ، وَأَشْفَعَ عِنْدَهُ ثَانِيَةً، مَعَ اسْتِحَالَةِ حُلُولِهِ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ الـمَكَانِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ مِنَ الأَمْكِنَةِ، وَإِنَّمَا الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ شَرَّفَ تِلْكَ الدَّارَ عَلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ الجِنَانِ بِأَنْ جَعَلَهَا مَحَلًّا لِشَرِيفِ رُؤْيَتِهِ، وَكَشْفِ الحِجَابِ عَنْ مُشَاهَدَتِهِ، وَلَذِيذِ خِطَابِهِ، وَمَبَرَّتِهِ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الفَائِزِينَ بِهَذِهِ الـمِنَحِ الجَلِيلَةِ، وَالظَّافِرِينَ بِهَذِهِ النِّعَمِ الحَفِيلَةِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، بِجَاهِ نَبِيِّكَ وَمُصْطَفَاكَ،

---

(1) التخريج السابق

(2) التخريج السابق

الشَّفِيعِ الـمُشَفَّعِ عِنْدَكَ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، عَلَيْهِ مِنْ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ، أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيم.

قَوْلُهُ: «عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرُوحٌ مِنْهُ» [1]

أَضَافَتُهُ[2] إِلَىٰ اللَّـهِ تَعَالَىٰ إِضَافَةُ مِلْكٍ وَتَشْرِيفٍ.

قوله: «يَدُ اللَّـهِ مَلْأَى»[3]

أَيْ: قُدْرَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مَثَّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عُمُومَ تَعَلُّقِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ بِجَمِيعِ هَذِهِ الأَنْوَاعِ مِنَ العَطَايَا وَالنَّفَقَاتِ عَلَىٰ خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ عُسْرٍ، وَلَا مُعَانَاةٍ، وَلَا عَجْزٍ، وَلَا ضَعْفٍ، بِاليَدِ الَّتِي اجْتَمَعَ فِيهَا جَمِيعُ مَا أُرِيدَ إِعْطَاؤُهُ، بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ مُعَانَاةٍ فِي جَمْعِهِ.

وَهَذِهِ النَّفَقَاتُ يَدْخُلُ فِيهَا إِمْدَادُ جَمِيعِ جَوَاهِرِ العُلْوِيَّاتِ وَالسُّفْلِيَّاتِ بِأَعْرَاضِهَا الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي بَقَائِهَا، إِذِ الْأَعْرَاضُ لَا بَقَاءَ لَهَا، وَإِمْدَادُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ بِأَعْرَاضِ الحَيَاةِ وَالإِدْرَاكَاتِ وَالاجْتِمَاعَاتِ بَيْنَ الأَجْزَاءِ وَالحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَحْوَالِ[4] وَالأَعْرَاضِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا مَالِكُهَا وَمُخْتَرِعُهَا رَبُّ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

---

(1) التخريج السابق

(2) في (ب): أضافها

(3) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص: ٧٥] رقم (7411) عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يَدُ اللهِ مَلْأَىٰ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ**».

(4) في (أ): الأصول

قَوْلُهُ: «وَبِيَدِهِ الأُخْرَى»[1]

سَمَّىٰ أَيْضًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تعلُّقًا آخرَ لِقُدْرَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَوْعٍ آخَرَ مِنَ الكَائِنَاتِ غَيْرِ النَّوْعِ الَّذِي ذَكَرَ أَوَّلًا «يَدًا»، وَلَا شَكَّ أَنَّ تعلُّقاتِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ مُتَعَدِّدَةٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَكَأَنَّ كُلَّ تعلُّقٍ يَدٌ تَتَصَرَّفُ بِهِ القُدْرَةُ فِي ذَلِكَ الـمُتَعَلَّقِ الـمَخْصُوصِ، فَلِلْقُدْرَةِ الأَزَلِيَّةِ مِنَ أَيَادِي التَّصَرُّفَاتِ فِي الـمُمْكِنَاتِ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَلَا يُشْغِلُهُ سُبْحَانَهُ تَصَرُّفٌ مِنْهَا عَنْ تَصَرُّفٍ غَيْرِهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يُشْغِلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ.

قَوْلُهُ: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضَ»[2] إِلَىٰ آخِرِهِ

قَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي بابِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾ [الناس: ٢].

قَوْلُهُ: «إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ»[3] إِلَىٰ آخِرِهِ.

---

(1) التخريج السابق

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص: ٧٥] رقم (7412)

(3) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[ص: ٧٥] رقم (7414) **قال القاضي أبو بكر بن العربي**: هذا الحديث صحيح قد بينا معانيه في كتب الأصول «المتوسط» و«العواصم» وغيرهما، وذكرنا اختلاف الناس في تأويله، وأن من وقَفَ فيه ونفىٰ التشبيه والتمثيل وأطلق اللفظ لوروده في الشرع وقدَّس الذات الكريمة عن الجارحة فهو معذورٌ، ومن تجاوز هذا فهو كافرٌ مغرور، وحقَّقنا أن من تأول فهو مصيبٌ، وتأويله بيِّنٌ، فإنَّ الله خلق العبد ووهب له القدرة علىٰ التصرف، وجعل له اليد والكف والأصابع أصلا في تصريف أفعاله، فضرب له المثل في نفسه به، وهو القائل سبحانه: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[الروم: ٢٨] وأنّ العبد يصرّف متعلّقات قدرته في مآربه

قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ الجِسْمِيَّةَ وَالجَوَارِحَ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَىٰ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الأَصَابِعُ هَاهُنَا أَصَابِعَ مَلَكٍ عَظِيمٍ رَفَعَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا هَذِهِ الأَجْرَامَ وَأَمْسَكَهَا عَلَيْهَا بِقُدْرَتِهِ، لَا بِاسْتِعَانَةٍ بِتِلْكَ الأَصَابِعِ، **بَلْ عِنْدَهَا، لَا بِهَا**، كَسَائِرِ الأَسْبَابِ العَادِيَّةِ، فَتَكُونُ الأَصَابِعُ - عَلَىٰ هَذَا - حَقِيقَةً[1].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الأَصَابِعُ اسْتُعْمِلَتْ عَلَىٰ طَرِيقِ الـمَجَازِ وَالتَّمْثِيلِ فِي تَعَلُّقَاتِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ لِإِمْسَاكِ هَذِهِ الأَجْرَامِ العَظِيمَةِ، وَعُبِّرَ عَنْ كُلِّ تَعَلُّقٍ[2] مِنْهَا بِالإِصْبَعِ إِشَارَةً إِلَىٰ عَدَمِ الكُلْفَةِ وَالتَّعَبِ فِي إِمْسَاكِهِ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الأَجْرَامِ العَظِيمَةِ بِقُدْرَتِهِ.

وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَ بِطَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ الـمُكَنِّيَةِ الْقُدْرَةَ الأَزَلِيَّةَ لَـمَّا كَانَ بِهَا التَّصَرُّفُ بِمَثَابَةِ اليَدِ، وَتَعَلُّقَاتِهَا بِالـمُمْكِنَاتِ بِمَثَابَةِ الأَصَابِعِ عَلَىٰ سَبِيلِ

بكفّه وأصابعه، فأخبر البارئ تعالىٰ علىٰ لسان نبيِّه في تصديقه لقائله بأنه مصرِّفٌ للمخلوقات، وأوضح كيفية تصريفها، فهو الذي يمسك السماء والأرض والماء والجبال والخلق، وضرب مثلا لإمساك هذه الخمس يد العبد بأصابعه الخمس. (عارضة الأحوذي، ج12/ ص 118 - 119)

(1) **عياض**: قوله «**يضع السماوات علىٰ إصبع**» الحديث، قيل: الإصبع صفة سمعية لله تعالىٰ لا يقال فيها أكثر من ذلك كاليد، وهو مذهب الأشعري وبعض أصحابه. وقد يحتمل أن يكون إصبعًا من أصابع ملائكته، أو خلقا من خلقه سماه إصبعا. وقيل: هي كناية عن القدرة وعن النعمة، وقيل: قد يكون المراد ضرب المثل من أنه لا تعب عليه ولا لغوب. (مشارق الأنوار، ج1/ ص 47)

(2) في (أ): متعلق

التَّمْثِيلِ وَالتَّقْرِيبِ، تَنْبِيهًا عَلَىٰ تَيَسُّرِ[1] جَمِيعِ التَّصَرُّفَاتِ وَسُهُولَتِهَا بِلَا كُلْفَةٍ أَصْلًا فِي حَقِّ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَرُّفَاتِهِ تَعَالَىٰ فِي السُّهُولَةِ بِمَثَابَةِ مَنْ رَفَعَ شَيْئًا حَقِيرًا عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَهُوَ فِي السُّهُولَةِ[2] بِحَيْثُ لَا يُحَسُّ رَفْعُهُ أَصْلًا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الأَصَابِعُ أَسْمَاءً لِبَعْضِ مَلَائِكَتِهِ[3]، وَاللهُ تعالىٰ أَعْلَمُ.

بَاب قَوْله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّـه»[4]

تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الغَيْرَةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ فِي بَابِ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ[5]: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ إِطْلَاقُ الشَّخْصِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ إِنَّمَا يَكُونُ مَوْصُوفُهُ مِنْ جِنْسِ الـمُفَضَّلِ[6] عَلَيْهِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ، أَمَّا إِذَا جُرَّ الـمُفَضَّلُ عَلَيْهِ بِـ«مِنْ» فَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ: «الإِنْسَانُ أَسْرَعُ مِنَ الفَرَسِ»، أَوْ «أَبْلَدُ مِنَ الحِمَارِ»، وَ«زَيْدٌ

---

(1) ليست في (أ)

(2) بمثابة.. السهولة: ليس في (أ)

(3) في (أ): أسماء الملائكة

(4) أخرجه البخاري في الصحيح تعليقا بصيغة الجزم، كتاب التوحيد ، باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ**». برقم (7416).

(5) في (ب): تعالىٰ

(6) في (أ): المقدور

أَقْطَعُ مِنَ الحَدِيدِ وَأَصْلَبُ مِنَ الحَجَرِ»، فَافْهَمْ ذَلِكَ فَقَدْ غَلِطَ فِي هَذَا الحَدِيثِ كَثِيرٌ.

قَوْلُهُ: «وَلَا أَحَدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّـهِ»[1]

يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِـ«**العُذْرِ**» الإِعْذَارَ الَّذِي يَقْطَعُ العُذْرَ وَلَا تَبْقَىٰ مَعَهُ حُجَّةٌ. وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا أَنَّهُ رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الـمُنْذِرِينَ وَالـمُبَشِّرِينَ**».

وَحُبُّهُ لِهَذَا الإِعْذَارِ بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ حَكَمَ أَنْ لَا يُعَذِّبَ فِي الآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَهُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، وَأَمَرَ الحُكَّامَ أَنْ لَا يُنَفِّذُوا حُكْمًا إِلَّا بِأَمْرِهِ[2].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الـمُرَادُ بِالعُذْرِ إِعْذَارُ عَبِيدِهِ إِلَيْهِ بِعَجْزِهِمْ وَتَقْصِيرِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ.

وَمَعْنَىٰ حُبِّهِ لِـهَذَا العُذْرِ أَنَّهُ يَقْبَلُهُ وَيَغْفِرُ لَـهُمْ وَيَسْمَحُ بِفَضْلِهِ لِـمَنْ جَاءَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورىٰ: ٢٥]، وَيَكُونُ عَلَىٰ هَذَا الـمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ: «**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الـمُنْذِرِينَ وَالـمُبَشِّرِينَ**» أَنَّهُ بَعَثَهُمْ مُبَشِّرِينَ لِـمَنْ تَابَ وَاعْتَذَرَ مِنْ كُفْرِهِ وَمَعَاصِيهِ بِالعَفْوِ

---

(1) التخريج السابق.

(2) في (ب): حكما بدونه.

وَالغُفْرَانِ[1]، وَمُنْذِرِينَ لِـمَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ كُفْرِهِ وَمَعَاصِيهِ بِشِدَّةِ العُقُوبَةِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: «وَلَا أَحَدَ أَحَبَّ إِلَيْهِ الـمِدْحَةُ مِنَ اللَّـهِ»[2]

هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ ثَوَابِهِ جَلَّ وَعَلَا عَلَىٰ[3] مَدْحِ عَبِيدِهِ لَهُ بِمَا نَدَبَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ[4] وَتَوْحِيدِهِ.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتُهُ لِـهَذَا النَّوْعِ بِمَعْنَىٰ الـمَيْلِ إِلَيْهِ وَالأُنْسِ بِهِ وَالالْتِذَاذِ بِسَمَاعِهِ؛ إِذْ هُوَ جَلَّ وَعَلَا مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ بِوُجُوبِ غِنَاهُ عَنْ حَمْدِ الحَامِدِينَ.

وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالـمَحَبَّةِ عَنْ كَثْرَةِ الثَّوَابِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُثِيبُ عَلَىٰ هَذَا مِثْلَ ثَوَابِ الـمُلُوكِ الكُرَمَاءِ لِـمَنْ مَدَحَهُمْ بِمَا هُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ، وَقَدْ عُلِمَ مَا تُعْطِيهِ الـمُلُوكُ مِنَ العَطَايَا الحَفِيلَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَمْرُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ.

وَهَذَا مَعَ فَقْرِهِمْ وَعَجْزِهِمْ، فَكَيْفَ يَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ العَظِيمِ الوَاسِعِ الجَوَادِ الغَنِيِّ الكَرِيمِ وَثَوَابُهُ لِـمَدْحِهِ بِذِكْرِهِ؟! وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ الصَّادِقُ الـمُصَدَّقُ أَنَّهُ لَا أَحَدَ[5] أَحَبَّ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَكْثَرَ مِنْهُ عَطَاءً عَلَىٰ ذَلِكَ.

---

(1) في (ب): والمغفرة.

(2) التخريج السابق.

(3) في (ب): عن

(4) وتكبيره وتحميده: ليس في (أ)

(5) أحد: ليست في (أ)

فَتَبًّا لِـمَنْ يَشْتَغِلُ بِمَدْحِ الـمَخْلُوقِ الفَقِيرِ العَاجِزِ النَّاقِصِ، وَلَا يُشْغِلُ نَفْسَهُ بِذِكْرِ مَوْلَاهُ الغَنِيِّ الكَرِيمِ وَمَدْحِهِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ – ٤٢].

بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧]

قَوْلُهُ: «وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]: ارْتَفَعَ»[1].

يَعْنِي: ارْتَفَعَ إِلَىٰ السَّمَاءِ بِاعْتِبَارِ التَّصَرُّفِ فِيهَا وَالفِعْلِ لَهَا، لَا بِاعْتِبَارِ الحَرَكَةِ وَالانْتِقَالِ بِالذَّاتِ العَلِيَّةِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ[2].

وَنَحْوُهُ مَا قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ عَلَا ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]. يَعْنِي: عَلَا عَلَيْهِ قَهْرًا وَتَصْرِيفًا لَهُ وَلِسَائِرِ العَوَالِمِ عَلَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِهِ[3].

---

(1) صحيح البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧].

(2) قال الإمام مكيّ بن أبي طالب القيرواني في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الحديد: ٤]: «أي: ارْتَفَعَ وَعَلَا، **ارتفاعَ قُدْرَةٍ وَتَعْظِيمٍ وجلَالَةٍ، لا ارتفاعَ نُقْلَةٍ**». (تفسير الهداية، ص 7307) وقال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]: «أي: **عَلَا عَلَيْهِ عُلُوَّ قُدْرَةٍ، لا عُلُوَّ مَكَانٍ**» (تفسير الهداية، ص 3664)

(3) وإليه يشير الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] حيث فسر الاستواء بالعلو والارتفاع، ثم فسر العلو والارتفاع بقوله: «**علا عليها علوّ ملك وسلطان، لا علوّ انتقال وزوال**». (جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج1/ ص 457).

وَأَمَّا العُلُوُّ بِالذَّاتِ وَالجُلُوسُ وَالاسْتِقْرَارُ فَمُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الأَجْرَامِ[1].

قَوْلُهُ: «وَزَوَّجَنِي مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»[2].

الفَوْقِيَّةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ التَّزْوِيجِ، لَا لِلذَّاتِ العَلِيَّةِ.

قَوْلُهُ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّـهِ مَلْئَى»[3]

وأكّد الإمامُ الطبريُّ ذلك المعنىٰ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧]: فقال «يقول: وإنا **عالُونَ عليهم بِالقَهْرِ، يعني بِقَهْرِ الملك والسلطان. وقد بينا أن كل عَالٍ بقَهْرٍ وغلبَةٍ علىٰ شيء فإنّ العرب تقول: هو فوقَه.** (جامع البيان، ج10/ ص370)

(1) وقال الإمام الخطابي: «**ليس معنىٰ قول المسلمين: «إن الله علىٰ العرش» هو أنه تعالىٰ مماسٌّ له، أو مُتمكّنٌ فيه، أو متحيّزٌ في جِهَة من جهاته؛ لأنه بائنٌ من جميع خَلْقِه**[1]، وإنما هو خبرٌ جاء به التوقيفُ، فقُلْنَا به ونَفَيْنَا عنهُ التَّكْييفَ؛ إذْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. (أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، ص1474)

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧] رقم (7420) عن أنس قال: جاءَ زيد بن حارثة يشكو، فجعلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اتَّقِ اللهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**»، قال أنسٌ: لو كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتمًا شيئًا لكتَمَ هذِهِ، قال: فكانت زينبُ تفخر علىٰ أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقول: «زوَّجكنَّ أهاليكُنَّ وزوَّجني الله تعالىٰ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ». وعن ثابتٍ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] نَزَلَتْ في شأن زينبَ وزيدِ بن حارثة.

(3) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧] رقم (7419) عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَىٰ لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُه عَلَىٰ المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ الفَيْضُ - أَوِ القَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**».

تَقَدَّمَ تَأْوِيلُهُ. وَسَمَّىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هُنَا القُدْرَةَ الأَزَلِيَّةَ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِهَا بِهَذِهِ الكَائِنَاتِ[1] الشَّرِيفَةِ العَظِيمَةِ المُتَكَاثِرَةِ «**يَمِينًا**» تَشْرِيفًا لِهَذَا المُتَعَلَّقِ وَإِشَارَةً إِلَىٰ كَثْرَتِهِ وَصُعُوبَتِهِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ العَادَةِ، لَا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، إِذِ الشَّأْنُ أَنَّ الأَمْرَ الشَّرِيفَ أَوِ الصَّعْبَ إِنَّمَا يُتَنَاوَلُ بِاليَمِينِ.

وَلَـمَّا كَانَ النَّوْعُ الآخَرُ مِنَ الكَائِنَاتِ دُونَ الأَوَّلِ أَضَافَهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَعَلُّقٍ آخَرَ مِنْ تَعَلُّقَاتِ القُدْرَةِ الأَزَلِيَّةِ وَسَمَّاهُ «يَدًا» وَلَمْ يُسَمِّهِ يَمِينًا، فَقَالَ: «وَبِيَدِهِ الأُخْرَىٰ القَبْضُ»، أَيْ: وَبِتَعَلُّقٍ آخَرَ لِقُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ القَبْضُ، إِلَىٰ آخِرِهِ.

فَالتَّعَدُّدُ إِنَّمَا هُوَ فِي تَعَلُّقَاتِ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ، لَا فِي قُدْرَتِهِ جَلَّ وَعَلَا لِأَنَّهَا وَاحِدَةٌ لَا تَتَعَدَّدُ، وَمَعَ وَحْدَتِهَا فَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِ المُمْكِنَاتِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا.

قَوْلُهُ: «كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»[2]

قال التاودي: «**الفَيْضُ**» بالفاء أي: فيض الإحسان بالعطاء، «**أَوِ القَبْضُ**» أي: قبض الأرواح بالموت. وقد يكون الفيض بمعنىٰ الموت، يقال: فاضت نفسُه. وعلىٰ هذا فـ«أو» للشكّ من الراوي، وعلىٰ الأول هي بمعنىٰ الواو. (زاد المجدِّ الساري، ج6/ ص527 طبعة دار الكتب العلمية)

(1) في (ب): الكنايات.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٧] رقم (7422) عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَىٰ الخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**».

الفَوْقِيَّةُ مَكَانُ الكَتْبِ وَالـمَكْتُوبِ، وَهُمَا فِعْلَانِ حَادِثَانِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَرْجِعَ لِلذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ لِتَنَزُّهِهِ تَعَالَىٰ عَنِ الحَيِّزِ وَالـمَكَانِ وَالتَّخْصِيصِ بِالزَّمَانِ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَىٰ هَذَا فِي بَابِ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].

بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[المعارج: ٤][1].

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الـمَعْنِيُّ: تَعْرُجُ إِلَىٰ مَحَلِّ ظُهُورِ حُكْمِهِ بِالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالقَبُولِ وَالرَّدِّ[2].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ عُرُوجِهِمْ إِلَيْهِ: انْتِهَاءُ الأُمُورِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِيَحْكُمَ فِيهَا بِمَا شَاءَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾[هود: ١٢٣]، وَتَقُولُ: رَفَعْتُ الأَمْرَ إِلَىٰ الحَاكِمِ، أَيْ: أَنْهَيْتُهُ إِلَيْهِ لِيَحْكُمَ فِيهِ[3].

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]

(2) قال الشيخ مجير الدين العليمي الحنبلي: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الحفظة بأعمال بني آدم ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هو جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ إلىٰ محل قربته وكرامته وهو السماء. (فتح الرحمن في تفسير القرآن، ج7/ ص156)

(3) وإليه يشير قول محيي السُّنة الإمام الحسين بن مسعود البغوي: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ يعني جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ مِنْ سِنِيِّ الدنيا لو صعد غير الملَك، وذلك أنها تصعد منتهىٰ أَمْرِ اللهِ تعالىٰ من أسفل الأرض السابعة إلىٰ منتهىٰ أَمْرِ اللهِ تعالىٰ من فوق السماء السابعة. (معالم التنزيل، ج8/ ص220)

وَعَلَىٰ هَذَا يُحمَلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وَلَيْسَ الـمُرَادُ أَنَّهُ تَعالَىٰ فِي جِهَةِ فَوْقَ وَتَصْعَدُ الـمَلَائِكَةُ إِلَيْهِ؛ لِـمَا عَرَفْتَ مِنْ وُجُوبِ تَنزُّهِهِ تَعالَىٰ عَنِ الجِهَاتِ وَالأَمْكِنَةِ.

قَوْلُهُ: «فَإِنَّ اللَّـهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِه»[1]

يَعْنِي: يَتَقَبَّلُهَا بِالتَّشْرِيفِ لَهَا وَالتَّكْرِيمِ وَالاعْتِنَاءِ وَالتَّعْظِيمِ، فَضْلًا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بِلَا غَرَضٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ.

وَلَـمَّا كَانَ النَّاسُ يَتَنَاوَلُونَ الأَشْيَاءَ الَّتِي يَعْتَنُونَ بِهَا وَيُشَرِّفُونَهَا بِاليَمِينِ، أُطْلِقَ التَّنَاوُلُ بِاليَمِينِ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ وَالـمُرَادُ لَازِمُهُ مِنَ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ اسْتِعْمَالٌ مَجَازِيٌّ مَشْهُورٌ عِنْدَ العَرَبِ وَفِي عُرْفِ النَّاسِ، وَلِـهَذَا يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي الأُمُورِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ تَنَاوُلُـهَا بِاليَدِ أَصْلًا، فَيَقُولُونَ: «تلَقَّ مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ فُلَانٌ بِيَمِينِكَ»، وَلَيْسَ الـمُرَادُ قَطْعًا إِلَّا الاعْتِنَاءُ بِذَلِكَ وَالاهْتِبَالُ بِهِ.

قَوْلُهُ: «وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّـهِ إِلَّا الطَّيِّبُ»[2]

يَعْنِي وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ: لَا يَصْعَدُ إِلَىٰ مَحَلِّ قَبُولِهِ وَتَكْرِيمِهِ إِلَّا طَيِّبٌ، أَوْ لَا يَرْتَفِعُ إِلَىٰ حُكْمِ قَبُولِهِ وَاعْتِنَائِهِ الأَرْفَعِ إِلَّا الطَّيِّبُ. وَهَذَا أَقْرَبُ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] رقم (7430) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّىٰ تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**».

(2) التخريج السابق.

الأَوَّلِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾[المطففين: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [المطففين: ٧].

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣].

قَوْلُهُ: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»[1]

التَّشْبِيهُ إِنَّمَا هُوَ فِي عَدَمِ التَّضَرُّرِ بِالازْدِحَامِ وَنَحْوِهِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلِهَذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِالشَّمْسِ إِلَّا فِي هَذَا الـمَعْنَىٰ، لَا مُطْلَقًا؛ لِحُصُولِ الضَّرَرِ لِلرَّائِي عِنْدَ رُؤْيَتِهَا فِي بَصَرِهِ بِتَشَعْشُعِ نُورِهَا فِيهِ وَفِي بَدَنِهِ بِتَوَهُّجِ حَرِّهَا عَلَيْهِ.

وَلَيْسَ الـمُرَادُ مِنَ التَّشْبِيهِ أَنَّهُ تَعَالَىٰ جِسْمٌ نُورَانِيٌّ يَرَوْنَهُ فِي جِهَةِ العُلُوِّ كَالقَمَرِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَقَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ بَيَانِ وَجْهِ الشَّبَهِ إِثْرَ تَشْبِيهِهِ فَقَالَ: «**لَا تُضَامُّونَ**[2] **فِي رُؤْيَتِهِ**»، فَهُوَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةٍ

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] برقم (7436) عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ البَدْرِ فَقَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ**» .

(2) قال القاضي **عياضٌ**: يروىٰ بتشديد الميم وتخفيفها، فمعنىٰ المشدد من الانضمام، أي: لا تزاحَمون ويضُمُّكُمْ غيرُكم حين النظر إليه، وهذا إذا قدرناه «تضامَمون» بفتح الميم الأولىٰ، ويكون أيضا «تضامِمنون» بكسرها، أي: تزاحمون غيركم في النظر إليه، كما تقدم في «تضارون». ومن خفف الميم فمن الضَّيْمِ وهو الظلمُ، أي: لا يظلم بعضكم بعضًا في النظر إليه ويقدر علىٰ منعه عنه لشهرته. (مشارق الأنوار، ج2/ ص59) راجع توجيه رواية «لا تضارون» (مشارق الأنوار، ج2/ ص57)

وقال أيضا: وفي بعض روايات البخاري في كتاب الصلاة في باب صلاة الفجر: «لا تضامون» و«لا تضاهون»، ومعناه بالهاء: لا يعارض بعضكم بعضا في الشك في رؤيته ونفيها، كما تقدم

بِرُؤْيَةٍ[1] فِيمَا ذُكِرَ، لَا تَشْبِيهُ مَرْئِيٍّ بِمَرْئِيٍّ فِي الكِبَرِ وَالنُّورِ وَالعُلُوِّ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١].

قَوْلُهُ: «فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَ رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ»[2] إِلَىٰ آخِرِهِ.

لَا شَكَّ وَلَا خَفَاءَ أَنَّ الصُّوَرَ الجِسْمِيَّةَ وَالجِسْمَانِيَّةَ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَىٰ مَوْلَانَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَقِلَ فِيهَا مِنْ صُورَةٍ إِلَىٰ صُورَةٍ كَمَا عُهِدَ فِي المَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! كَيْفَ وَمُطْلَقُ التَّغَيُّرِ فِي ذَاتِهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ الأَزَلِيَّةِ مُسْتَحِيلٌ أَزَلًا وَأَبَدًا؟! فَتَعَيَّنَ حَمْلُ هَذِهِ الصُّوَرِ الوَاقِعَةِ فِي هَذَا

في «تضارون» و«تضامون»، أو: لا تُشَبِّهُونَ ربَّكُمْ في رؤيته لغَيْرِه، وأنَّ معنىٰ قوله قبل: «**كما ترون القمر ليلة البدر**» في شبه وضوح الرؤية وتحقيقها ورفع اللبس، لا في شبه المرئي، تعالىٰ الله عن صفات الأجسام. (مشارق الأنوار، ج2/ ص62)

(1) **قال الشيخ أبو عبد الله بن مجاهد البصري** بعد أن استدل بهذا الحديث الشريف علىٰ إثبات الرؤية: فبيّن أن رؤيته تعالىٰ بأعين الوجوه، وَلَمْ يُرِد النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مثلُ القمَرِ؛ مِنْ قِبَلِ أنّ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبَّه الرؤيةَ بالرؤية، ولم يُشَبِّه الله تعالىٰ بالقمر. (رسالة إلىٰ أهل الثغر، ص 239 وهي منسوبة خطأً للشيخ أبي الحسن الأشعري)

البيضاوي: أي: تكون رؤيته تعالىٰ رؤية جليةً بَيِّنَةً لا تقبل مراءً ولا مِرْيةً فيخالِفُ فيها بعضُكم بعضًا ويكذِّبُه، كما لا يُشك في رؤية الشمس والقمر ولا ينازع فيها، فالتشبيه إنما وقعَ في الرؤية باعتبار جلائها وظهورها بحيث لا يُرتَابُ فيها، لا في سائر كيفياتها ولا في المرئيِّ؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ منزّهٌ عن الجسمية وعما يؤدي إليها. (تحفة الأبرار، ج3/ ص 403)

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] رقم (7437)

الحَديثِ وَالتَّنَقُّلِ فِيهَا أَنَّهُ كَانَ فِي أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ، وَأَنَّهُ مِنْ مُغَالَطَةِ أَبْصَارِهِمْ، وَلَا صُورَةَ جِسْمِيَّةَ[1] فِي ذَاتِهِ تَعَالَىٰ وَلَا تَنقُّلَ فِيهَا أَصْلًا، بَلْ لَمْ يَزَلْ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كَمَالِهِ الأَزَلِيِّ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ وَلَا يَزَالُ.

فَلَمَّا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ: «**أَنَا رَبُّكُمْ**» عِنْدَ تِلْكَ الصُّورَةِ الجِسْمَانِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ لِأَعْيُنِهِمْ وَرَأَوْهَا لِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ المَعْرِفَةِ بِهِ جَلَّ وَعَلَا فِي الدُّنْيَا أَنَّهَا مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهِ تَوَهَّمُوا لِأَجْلِ غَلَطِ أَبْصَارِهِمْ وَأَسْمَاعِهِمْ أَنَّ تِلْكَ الصُّورَةَ الحَادِثَةَ هِيَ القَائِلَةُ لَهُمْ: «**أَنَا رَبُّكُمْ**»، فَلَمْ يُقِرُّوا لَهَا بِذَلِكَ، وَتَبَرَّؤُوا مِنْهَا، وَاسْتَعَاذُوا مِنْهَا، عَلَىٰ مَا ثَبَتَ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الحَدِيثِ.

وَلِهَذَا قَالُوا: «هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَ رَبُّنَا»، أَيْ: حَتَّىٰ يَتَجَلَّىٰ لَنَا رَبُّنَا بِأَنْ يَخْلُقَ لَنَا رُؤْيَةَ ذَاتِهِ الَّتِي عَرَفْنَا وُجُوبَ تَنَزُّهِهَا عَنْ سِمَاتِ الحَوَادِثِ. فَهُوَ إِتْيَانُ تَجَلٍّ وَكَشْفٍ وَظُهُورٍ، لَا إِتْيَانُ حَرَكَةٍ وَحُلُولٍ بِذَلِكَ المَكَانِ مَحَلِّ كُلِّ حَادِثٍ مَقْهُورٍ.

وَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ: «فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ»، أَيْ: إِذَا تَجَلَّىٰ وَظَهَرَ بِإِزَالَةِ الحُجُبِ عَنْ أَعْيُنِنَا وَخَلَقَ الرُّؤْيَةَ فِيهَا لِذَاتِهِ الأَزَلِيَّةِ عَرَفْنَاهُ بِمَا تَقَرَّرَ عِنْدَنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ نَزَاهَتِهِ وَكَمَالِهِ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثْلَ[2] وَلَا شَبِيهَ.

---

(1) في (أ): جسمانية

(2) في (أ): ولا مثيل

وَنَحْوُ هَذِهِ العِبَارَاتِ فِي إِطْلَاقِ الـمَجِيءِ بِمَعْنَىٰ التَّجَلِّي وَالظُّهُورِ - لَا بِمَعْنَىٰ الحَرَكَةِ وَالانْتِقَالِ - قَوْلُهُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾[الإسراء: ٨١] أَيْ: تَجَلَّىٰ وَظَهَرَ، لَا أَنَّهُ تَحَرَّكَ وَانْتَقَلَ لِاسْتِحَالَةِ الحَرَكَةِ عَلَىٰ الـمَعَانِي.

وَهَذِهِ الصُّورَةُ الحَادِثَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ لِأَعْيُنِ الـمُؤْمِنِينَ فِي الـمَوْقِفِ وَسَمِعُوا عِنْدَهَا الكَلَامَ بِـ«**أَنَا رَبُّكُمْ**» فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ يُفْتَنُ بِهَا الـمُؤْمِنُونَ فِي عَقَائِدِهِمْ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمُ النَّجَاةُ مِنْهَا إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِمَا وَهَبَ لَهُمْ مِنَ الـمَعْرِفَةِ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

وَانْظُرْ عَظِيمَ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِالـمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الفِتْنَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْفَرِدْ بِمُكَابَدَتِهَا[1] عَوَامُّ الـمُؤْمِنِينَ، بَلْ كَفَاهُمْ مُؤْنَتَهَا وَالجَوَابَ فِيهَا مَنْ مَعَهُمْ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ كَمَا فِي الحَدِيثِ بَعْدَ هَذَا، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ كَفِتْنَةِ القَبْرِ الَّتِي يُكَابِدُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ وَحْدَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَلْطَافُ الـمَوْلَىٰ الكَرِيمِ الجَلِيَّةِ وَالخَفِيَّةِ لَا تُفَارِقُ عِبَادَهُ الـمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ، فَلِلَّهِ الحَمْدُ رَبِّ العَالَـمِينَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «فِي» الدَّاخِلَةُ عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ الحَادِثَةِ بِمَعْنَىٰ «مَعَ»، وَعَلَيْهِ يَجِيءُ مَا سَبَقَ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الخَارِجِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ مَغَالِطِ أَبْصَارِهِمْ.

---

(1) في (أ): بمكايدها

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَىٰ «البَاءِ»، وَيَكُونُ إِتْيَانُهُ تَعَالَىٰ بِهَا هُوَ خَلْقَهُ لَهَا فِي ذَلِكَ المَكَانِ فِتْنَةً لَهُمْ، أَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً قَبْلَ ذَلِكَ وَسَاقَهَا إِلَىٰ ذَلِكَ المَكَانِ، وَقَالَ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ لَهَا وَإِتْيَانِهَا إِلَيْهِمْ: «أَنَا رَبُّكُمْ» عَلَىٰ سَبِيلِ الفِتْنَةِ، أَوْ تِلْكَ الصُّورَةُ بِنَفْسِهَا هِيَ القَائِلَةَ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، هَذَا كُلُّهُ مُحْتَمِلٌ جَائِزٌ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالمُرَادِ.

قَوْلُهُ: «فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا»[1]

يَعْنِي: يَتَجَلَّىٰ لَهُمْ وَتُخْلَقُ الرُّؤْيَةُ لِذَاتِهِ عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا مِنِ اخْتِصَاصِهِ تَعَالَىٰ بِالكَمَالِ العَدِيمِ المِثَالِ وَالنَّظِيرِ، المُنَزَّهِ عَنْ سِمَاتِ جَمِيعِ الحَوَادِثِ.

فَالصُّورَةُ هُنَا بِمَعْنَىٰ الحَقِيقَةِ وَالصِّفَةِ، لَا بِمَعْنَىٰ الشَّكْلِ الجِسْمَانِيِّ، وَلِمَجِيءِ الصِّفَةِ الأَزَلِيَّةِ فِي صُحْبَتِهَا عُبِّرَ عَنْهَا بِالصُّورَةِ عَلَىٰ طَرِيقِ المُشَاكَلَةِ، وَمِنْ مَجِيءِ الصُّورَةِ بِمَعْنَىٰ الحَقِيقَةِ - لَا بِمَعْنَىٰ الشَّكْلِ الجِسْمَانِيِّ - قَوْلُهُمْ: «صُورَةُ المَسْأَلَةِ».

قَوْلُهُ: «فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَتَّبِعُونَهُ»[2].

يَعْنِي: يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ وَإِذْنَهُ لَهُمْ بِالمَجِيءِ إِلَىٰ دَارِ كَرَامَتِهِ وَمَحَلِّ اجْتِمَاعِ الشَّمْلِ، بِدَلِيلِ خِطَابِهِ وَرُؤْيَتِهِ[3]، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ: «فُلَانٌ مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ

---

(1) التخريج السابق.

(2) التخريج السابق.

(3) ورؤيته: ليست في (ب)

صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، مَعْنَاهُ: مُتَّبِعٌ لِأَمْرِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وَقَالَ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وَإِنَّمَا حُذِفَ الأَمْرُ وَنُسِبَ الاتِّبَاعُ فِي الحَدِيثِ لِذَاتِهِ تَعَالَىٰ لِلْمُشَاكَلَةِ لِأَنَّهُ جَاءَ هَذَا فِي صُحْبَةِ ذِكْرِ اتِّبَاعِ الكُفَّارِ المَعْبُودَاتِ الحَادِثَةَ الَّتِي ذَهَبَتْ وَرَاءَهَا إِلَىٰ النَّارِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَيَّنَ بِهَذِهِ العِبَارَاةِ الَّتِي خَرَجَتْ عَلَىٰ سَبِيلِ المَجَازِ وَالاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ المُكَنِّيَةِ عَظِيمَ إِكْرَامِ المَوْلَىٰ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ وَمَنِ اجْتَمَعَ فِيهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ وَالأَقْطَابِ وَالأَوْتَادِ وَالأَبْدَالِ وَالأَوْلِيَاءِ وَالعُلَمَاءِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ بِفَضْلِهِ اعْتَنَىٰ بِهِمْ عِنْدَ وُفُودِهِمْ أَرْضَ المَوْقِفِ قَاصِدِينَ جَنَّتَهُ وَدَارَ كَرَامَتِهِ، اعْتِنَاءَ مَلِكٍ عَظِيمٍ قَدِمَ عَلَيْهِ خَوَاصُّ عَبِيدِهِ المُحِبِّينَ عِنْدَهُ مَعَ أَتْبَاعِهِمْ، فَأَظْهَرَ ذَلِكَ المَلِكُ الاعْتِنَاءَ بِهِمْ وَالاعْتِنَاءَ بِأَتْبَاعِهِمْ، وَالتَّنْوِيهَ بِأَقْدَارِهِمْ، وَإِدْخَالَ عَظِيمِ السُّرُورِ عَلَيْهِمْ بِأَنْ خَرَجَ مِنْ مَدِينَتِهِ وَبَرَزَ عَنْ قَصْرِهِ وَمَحَلِّ اسْتِقْرَارِهِ الَّذِي فِيهِ يُقْصَدُ لِرُؤْيَتِهِ، وَتَلَقَّاهُمْ بَعِيدًا عَنِ المَدِينَةِ بِمَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ حَتَّىٰ بَايَعُوهُ هُنَاكَ، وَشَفَوْا صُدُورَهُمْ مِنْ لَذِيذِ رُؤْيَتِهِ، وَطَابَتْ قُلُوبُهُمْ بِسَمَاعِ لَطِيفِ خِطَابِهِ.

فَلَمَّا قَضَوْا وَطَرَهُمْ مِنْ هَذِهِ اللَّذَائِذِ، وَسَكَّنُوا بَعْضَ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الشَّوْقِ الزَّائِدِ، كَرَّ المَلِكُ رَاجِعًا إِلَىٰ دَارِهِ وَمَوْضِعِ سَرِيرِ مُلْكِهِ الَّتِي فِيهَا يُقْصَدُ لِلتَّمَتُّعِ بِمُشَاهَدَتِهِ وَالتَّوَسُّعِ فِي عَطَائِهِ وَمِنَحِهِ وَذَخَائِرِ ضِيَافَتِهِ، وَأَذِنَ لِعَبِيدِهِ

الوَافِدِينَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ إِلَىٰ دَارِهِ الَّتِي فِيهَا يَسْتَقِرُّونَ، وَبِلَطَائِفِ[1] نِعَمِ الـمَلِكِ فِيهَا يَتَنَعَّمُونَ وَيَمْرَحُونَ وَيَتَّسِعُونَ، وَبِمُجَاوَرَةِ الـمَلِكِ وَزِيَارَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ فِي أَعْيَادِهَا يَطِيبُونَ وَيَغْتَبِطُونَ.

فَرُؤْيَةُ الـمُؤْمِنِينَ لِـمَوْلَانَا جَلَّ وَعَلَا فِي أَرْضِ الـمَوْقِفِ وَسَمَاعُ خِطَابِهِ الأَرْفَعِ وَسُجُودُهُمْ لَهُ هُنَاكَ نَظِيرُ خُرُوجِ الـمَلِكِ لِعَبِيدِهِ وَرُؤْيَتِهِمْ لَهُ وَمُبَايَعَتِهِمْ لَهُ بَعِيدًا مِنَ البَلَدِ، وَالجَنَّةُ نَظِيرُ مَدِينَةِ الـمَلِكِ، وَفَحْصَتُهُ العَرْشُ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ رُؤْيَتِهِ تَعَالَىٰ نَظِيرُ قَصْرِ الـمَلِكِ الَّذِي فِيهِ مُسْتَقَرُّهُ وَفِيهِ سَرِيرُ مُلْكِهِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ لِلنَّاسِ.

وَحَجْبُهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ فِي الـمَوْقِفِ حَتَّىٰ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ نَظِيرُ رُجُوعِ الـمَلِكِ إِلَىٰ دَارِهِ، وَكَوْنُهُمْ أُمِرُوا بِالـمَشْيِ وَالاجْتِيَازِ عَلَىٰ قَنْطَرَةِ الصِّرَاطِ إِلَىٰ الجَنَّةِ فَفَعَلُوا نَظِيرُ اتِّبَاعِ العَبِيدِ الوَافِدِينَ لِلْمَلِكِ إِلَىٰ مَدِينَتِهِ وَدَارِهِ.

فَأَثْبَتَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَعْضَ لَوَازِمِ الـمُشَبَّهِ بِهِ مِنَ الإِتْيَانِ وَالـمَجِيءِ وَالاتِّبَاعِ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّخْيِيلِ فِي حَقِّهِ تَعَالَىٰ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ التَّشْبِيهِ الـمُضْمَرِ فِي النَّفْسِ الـمُسَمَّىٰ بِالاسْتِعَارَةِ بِالكِنَايَةِ، وَالـمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ إِظْهَارُ تَكْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِعَبِيدِهِ الـمُؤْمِنِينَ مَعَ غِنَاهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَعَنْ أَعْمَالِـهِمْ.

وَبِالتَّأَمُّلِ فِي ذَلِكَ يَمْتَلِئُ القَلْبُ بِمَحَبَّةِ هَذَا الـمَوْلَىٰ العَظِيمِ، وَيَنْسَىٰ كُلَّ مَا سِوَاهُ مِنْ بَالِهِ، وَيَمْتَلأُ أَيْضًا بِمَحَبَّةِ هَذَا النَّبِيءِ الشَّرِيفِ الَّذِي لَمْ يَنْكَشِفْ هَذَا

---

(1) في (أ): وبأطايب

الأَمْرُ العَجِيبُ مِنْ غُيُوبِ الآخِرَةِ إِلَّا عَلَىٰ يَدِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.

قَوْلُهُ: «فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِه»[1]

«السَّاقُ» بِمَعْنَىٰ قَصَبَةِ الرِّجْلِ مُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِتَنَزُّهِهِ عَنِ الجِسْمِيَّةِ وَأَعْضَائِهَا، فَتَعَيَّنَ التَّأْوِيلُ، وَفِيهِ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ، وَأَقْرَبُهَا أَنَّ السَّاقَ بِمَعْنَىٰ النَّفْسِ وَالذَّاتِ، وَقَدْ ثَبَتَ اسْتِعْمَالُ السَّاقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ العَرَبِ.

وَمَعْنَىٰ كَشْفِهِ تَعَالَىٰ عَنْ ذَاتِهِ إِزَالَةُ الحُجُبِ عَنْ أَبْصَارِ الـمُؤْمِنِينَ فِي الـمَوْقِفِ، وَخَلْقُ الرُّؤْيَةِ فِيهَا لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهِ حِجَابٌ يَحْجُبُهُ فَأَزَالَهُ عَنْهُ كَمَا يَكُونُ الـمُلُوكُ وَرَاءَ السُّتُورِ وَالجُدْرَانِ وَنَحْوِهَا، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَلَا حِجَابَ إِلَّا عَلَىٰ الخَلْقِ الـمَقْهُورِينَ، وَلَا حِجَابَ عَلَىٰ الـمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: «فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّار»[2]

لَيْسَ مَعْنَاهُ القَبْضُ بِالكَفِّ أَوْ بِالجَارِحَةِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنِ الجِسْمِيَّةِ وَسِمَاتِ الحَوَادِثِ[3]، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ سُهُولَةِ إِخْرَاجِهِمْ - مَعَ كَثْرَتِهِمْ - مِنَ النَّارِ، وَأَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ كَقَبْضِ شَيْءٍ حَقِيرٍ قَلِيلٍ مِنْ مَوْضِعٍ، وَرَمْيٍ بِهِ فِي

---

(1) التخريج السابق.

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] رقم (7440)

(3) في (أ): الجسمية وصفات الجوارح.

مَوْضِعٍ آخَرَ، فَسَمَّىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تَعَلُّقَ القُدْرَةِ الأَزَلِيَّةِ بِإِخْرَاجِهِمْ لِلتَّعَلُّقِ التَّنْجِيزِيِّ قَبْضًا لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: «وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ كَذَبَهُنَّ»[1]

يَعْنِي: عَرَّضَ بِهِنَّ وَوَرَّىٰ لِلضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَلَيْسَتْ بِكَذِبٍ بِحَسَبِ مَقْصِدِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَمَّاهَا كَذِبًا بِاعْتِبَارِ فَهْمِ الـمُخَاطَبِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَنْزِيهُ الأَنْبِيَاءِ عَنِ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا، وَأَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ مِنْ ذَلِكَ خَطِيئَةً إِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوَاضُعِ وَالهَيْبَةِ وَالإِشْفَاقِ.

قَوْلُهُ: «ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[2]

لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَهُ ذَنْبٌ مُتَقَدِّمٌ وَذَنْبٌ مُتَأَخِّرٌ غَفَرَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ؛ لِـمَا عَرَفْتَ مِنْ وُجُوبِ عِصْمَةِ الأَنْبِيَاءِ عُمُومًا وَعِصْمَةِ أَشْرَفِ الخَلْقِ خُصُوصًا.

وَأَقْرَبُ مَا يُتَأَوَّلُ بِهِ أَنَّ الـمُرَادَ بِالـمَغْفِرَةِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الفَتْحِ: الـمَغْفِرَةُ اللُّغَوِيَّةُ وَهِيَ السَّتْرُ، وَتَكُونُ العِبَارَةُ مِنْ بَابِ الأَخْذِ بِالأَطْرَافِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإِحَاطَةِ، كَقَوْلِكَ: «قَرَأْتُ القُرْآنَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»، أَيْ: أَحَطْتُ بِطَرَفَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا مَحَلُّ النِّسْيَانِ وَالإِهْمَالِ، فَكَيْفَ بِالوَسَطِ؟! كَذَلِكَ تَقُولُ: «جُلْتُ البَلَدَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّكَ لَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا.

---

(1) التخريج السابق.

(2) التخريج السابق.

فَالـمَعْنِيُّ أَنَّهُ أَحَاطَ بِالذَّنْبِ السَّتْرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سَاحَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَسَتَرَ عَنْهُ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، فَلَا يَقْرَبُ سَاحَتَهُ الـمُطَهَّرَةَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصْلًا، فَتَكُونُ «مِنْ» عَلَىٰ هَذَا لِلتَّبْعِيضِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿مِن ذَنۢبِكَ﴾[الفتح: ٢] بِمَعْنَىٰ «عَنْ»، والـمَعْنَىٰ أَنَّهُ سَتَرَ عَنْهُ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ سَوَابِقَ الذَّنْبِ مِنَ الهَوَاجِسِ وَالخَوَاطِرِ وَحَدِيثِ النَّفْسِ وَالهَمِّ وَالعَزْمِ، وَلَوَاحِقَهُ مِنَ الرَّانِ وَالقَسْوَةِ وَالعَذَابِ وَالـمَقْتِ وَغَيْرِهَا مِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ، وَإِذَا أُحِيطَ بِالذَّنْبِ سَوَابِقِهِ وَلَوَاحِقِهِ فَأَنَّىٰ أَنْ يَحُلَّ بِسَاحَتِهِ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ؟!.

وَإِضَافَةُ الذَّنْبِ إِلَيْهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي الآيَةِ بِمَعْنَىٰ القَبُولِ، لَا بِمَعْنَىٰ الحُصُولِ، وَعَدَلَ إِلَىٰ التَّعْرِيفِ بِـ«مَا» عَنِ التَّعْرِيفِ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ إِحْضَارِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْهِ بِأَنْ بَعَّدَ عَنْهُ بِمَحْضِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مَا هُوَ قَابِلٌ لَهُ عَقْلًا بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مُجَرَّدِ إِنْسَانِيَّتِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ»[1]

يَعْنِي: أَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ مَحَلِّ رُؤْيَةِ رَبِّي فِي دَارِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا سُبْحَانَهُ لِرُؤْيَتِهِ، مَعَ تَنَزُّهِهِ عَنِ الحُلُولِ فِيهَا بِذَاتِهِ. فَإِضَافَتُهَا إِلَيْهِ إِضَافَةُ مِلْكٍ وَتَشْرِيفٍ، وَقَدْ سَبَقَ تَأْوِيلُ ذَلِكَ.

---

(1) التخريج السابق.

قَوْلُهُ: «مَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ»[1]

الـمُرَادُ بِالوَجْهِ الذَّاتُ، لَا الجَارِحَةُ، وَالـمُرَادُ بِالرِّدَاءِ الصِّفَةُ.

وَقَوْلُهُ: «فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ» مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «**أَنْ يَنْظُرُوا**»، فَهُوَ ظَرْفٌ لِنَظَرِهِمْ إِلَىٰ اللَّـهِ تَعَالَىٰ، وَلَيْسَ بِظَرْفٍ لِذَاتِهِ العَلِيَّةِ.

وَالـمَعْنِيُّ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا فِي جَنَّةِ عَدْنٍ إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا صِفَةُ الكِبْرِيَاءِ، وَهِيَ العَظَمَةُ الَّتِي اتَّصَفَتْ بِهَا ذَاتُهُ العَلِيَّةُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا عَامَلَهُمْ تَعَالَىٰ بِمُقْتَضَاهَا وَأَشْهَدَهُمْ إِيَّاهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا رُؤْيَتَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أَلَا تَرَىٰ أَنَّ مَنِ اسْتَحْضَرَ فِي الدُّنْيَا عَظَمَةَ مَلِكٍ مِنَ الـمُلُوكِ فِي خَيَالِهِ فِي غَايَةٍ، وَأَحْضَرَ حَقَارَةَ نَفْسِهِ فِي غَايَةٍ، لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَهُ وَلَا أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ هَيْبَةً لَهُ، وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْدَادَ البَصَرِ فِي ذَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْظِيمًا وَهَيْبَةً لَهُ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ عَظَمَةِ رَبِّ العَالَـمِينَ مَلِكِ الـمُلُوكِ الرَّبِّ القَادِرِ الـمُقْتَدِرِ القَهَّارِ ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ؟!

فَشَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَظَمَةَ مَوْلَانَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مَنْعِهَا مِنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ مُلَاحَظَةِ الـمُؤْمِنِينَ لَهَا وَمُعَامَلَتِهِمْ بِمُقْتَضَاهَا بِالرِّدَاءِ الـمَحْسُوسِ الـمَانِعِ مِنْ رُؤْيَةِ مَنْ تَرَدَّىٰ بِهِ، فَإِذَا أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرَاهُ الـمُؤْمِنُونَ أَحْضَرَ بِقُلُوبِهِمْ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] رقم (7444)

صِفَةَ جَمَالِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ وَعَفْوِهِ عَنْهُمْ وَسَتْرِهِ الجَمِيلِ عَلَيْهِمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ أَوْصَافِ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّتِي هِيَ مَقَامُ الأُنْسِ وَالمَحَبَّةِ وَالتَّلَذُّذِ بِالرُّؤْيَةِ وَتَطَايُرِ القَلْبِ بِالاشْتِيَاقِ وَطَلَبِ الاجْتِمَاعِ وَالوُصْلَةِ.

فَإِذَا مَلأَ سُبْحَانَهُ قُلُوبَهُمْ بِمُشَاهَدَةِ هَذَا الجَمَالِ العَدِيمِ المِثَالِ، وَغَيَّبَ قُلُوبَهُمْ عَنْ مُشَاهَدَةِ العَظَمَةِ وَالقَهْرِ وَالجَبَرُوتِ، فَحِينَئِذٍ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ رُؤْيَتِهِ، وَالتَّلَذُّذِ الَّذِي لَا يُكَيَّفُ بِشَرِيفِ مُشَاهَدَتِهِ، فَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: لَيْسَ بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَرُؤْيَةِ مَوْلَاهُمْ إِلَّا صِفَةُ الكِبْرِيَاءِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا، إِذَا غَيَّبَهَا عَنْهُمْ وَرَفَعَهَا فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُمْ وَتَجَلَّىٰ لَهُمْ بِصِفَةِ الجَمَالِ تَطَايَرُوا شَوْقًا إِلَىٰ رُؤْيَتِهِ وَالتَّلَذُّذِ بِشَرِيفِ مُخَاطَبَتِهِ وَمُكَالَمَتِهِ، فَسُبْحَانَهُ مَا أَوْسَعَ كَرَمَهُ وَنَوَالَهُ وَأَعَزَّ جُودَهُ وَأَفْضَالَهُ.

قَوْلُهُ: «لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ»[1]

مَعْنَاهُ: لَا يَرْحَمُهُمْ، وَإِلَّا فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَغِيبَ عَنْ نَظَرِهِ تَعَالَىٰ وَبَصَرِهِ مَوْجُودٌ مِنَ المَوْجُودَاتِ، فَأَطْلَقَ نَفْيَ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ وَالمُرَادُ لَازِمُهُ مِنَ الغَضَبِ عَلَيْهِمْ وَالانْتِقَامِ وَالإِعْرَاضِ عَنْ رَحْمَتِهِمْ.

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣] رقم (7446) عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَىٰ سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَىٰ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَىٰ وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ العَصْرِ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: اليَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ».

قَوْلُهُ: «فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ»[1]

قَدْ تَقَرَّرَ بِالبَرَاهِينِ القَطْعِيَّةِ اسْتِحَالَةُ الحَرْفِ وَالصَّوْتِ عَلَىٰ كَلَامِ مَوْلَانَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَالمَعْنِيُّ إِذًا فِي الحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُنَادِي أَهْلَ المَحْشَرِ بِصَوْتِ مَلَكٍ يَبْعَثُهُ إِلَيْهِمْ، يَسْمَعُ صَوْتَهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، يَقُولُ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: **«أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ»**[2].

ونَظِيرُهُ مَا يَأْتِي بَعْدَ هَذَا، يَقُولُ اللهُ: **«يَا آدَمُ»**، فَيَقُولُ: **«لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ»**[3]، مَعْنَاهُ: بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ يَبْعَثُهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

بَابُ كَلَامِ الرَّبِّ تَعَالَى مَعَ جِبْرِيلَ

قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا»[4]

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣] قال: البخاريُّ: ويُذْكَرُ عن جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أُنَيْس قال: سمعتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ**».

(2) التخريج السابق.

(3) التخريج السابق، رقم (7483)

(4) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الربِّ تعالىٰ مع جبريل ونداء الله الملائكة. رقم (7485) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تبارك وتعالىٰ إذا أحبَّ عبدًا نادىٰ جبريلَ: إنَّ اللهَ قد أحبَّ فلانًا فأحبَّهُ، فيُحبُّه جبريلُ، ثم ينادي جبريلُ في السماء: إن الله قد أحبَّ فلانا فأَحِبُّوهُ، فيحبُّه أهلُ السماء، ويُوضَعُ له القَبُولُ في أهْلِ الأَرْضِ**».

مَعْنَاهُ: قَدْ نَزَّلَهُ فِي مُعَامَلَتِهِ لَهُ بِالفَضْلِ الجَمِيلِ مَنْزِلَةَ الـمَحْبُوبِ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَالَ إِلَيْهِ وَأَنِسَ بِهِ وَالْتَذَّ بِقُرْبِهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ التَّغَيُّرَ مُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ ذَاتِهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ.

بَابُ قَوْلِ اللَّـهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح: ١٥]

قَوْلُهُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا[1] إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ»[2]

لَا خَفَاءَ أَنَّ الجِهَةَ[1] وَالـمَكَانَ وَالحَرَكَةَ وَالانْتِقَالَ وَالهُبُوطَ وَالصُّعُودَ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الحَوَادِثِ النَّاقِصَةِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ عَلَىٰ الـمَوْلَىٰ

---

(1) **قال القاضي عياض**: روىٰ ابن حبيب عن **مالكٍ**: يَنْزِلُ أَمْرُهُ ونَهْيُهُ، وأمَّا هو تعالىٰ فدائمٌ لا يزول. وقاله غيرُه. واعترَض بعضُهم علىٰ هذا بأنَّ أَمْرَهُ ينزِلُ في كلِّ حينٍ، فلا يختص بوقت دون وقت. وهذا لا يلزم لأن الذي يختص نزولُ أمره به هذا الوقت هو ما اقترن بهذا القول: «هل من سائل؟ هل من داع؟» الحديث، وأمْرُهُ ينزِلُ أبدًا من غير هذه القرينة. وقيل: هو مجاز، أي: يبسط رحمته، وقيل: هو عبارة عن بسط رحمته وقرب إجابته. (مشارق الأنوار، ج2/ ص9)

(2) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] رقم (7494) عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يتنزّلُ ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلَّ ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ اللَّيْلِ الآخرُ فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»**.

قال القاضي البيضاوي: لَـمَّا ثبتَ بالقواطع العقلية والنقلية أنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ منزَّهٌ عن الجسمية والتحيّز والحلول، امتنعَ عليه النزول علىٰ معنىٰ الانتقال من موضع أعلىٰ إلىٰ ما هو أخفَضُ منه، بل المعنيُّ به علىٰ ما ذكَرَهُ أهل الحقِّ: دُنُوُّ رحمته ومزيدُ لطفِه علىٰ العباد وإجابة دعوتهم وقبول معذرتهم. (تحفة الأبرار، ج1/ ص364)

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فتَعَيَّنَ أَنَّ الـمَعْنِيَّ: يَنزِلُ مَلَكُ رَبِّنَا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ حَاكِيًا عَنِ اللَّهِ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، إِلَىٰ آخِرِهِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ هَذَا الحَدِيثِ: «**يُنْزِلُ رَبُّنَا**» بِضَمِّ اليَاءِ رُبَاعِيًّا مِنْ «**أَنْزَلَ**»، لَا ثُلَاثِيًّا مِنْ «نَزَلَ»، وَهُوَ يَشْهَدُ لِصِحَّةِ هَذَا التَّأْوِيلِ[2]، وَالتَّنَزُّلُ عَلَىٰ هَذَا التَّأْوِيلِ تَنَزُّلٌ حِسِّيٌّ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّنَزُّلُ تَنَزُّلًا مَعْنَوِيًّا، وَيَكُونُ الـمَعْنِيُّ: يَتَنَزَّلُ مَوْلَانَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ مُعَامَلَةِ عَبِيدِهِ - أَهْلِ الأَرْضِ - بِمُقْتَضَىٰ الغَضَبِ لِكَثْرَةِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الـمُخَالَفَاتِ فِي النَّهَارِ وَصَدْرِ اللَّيْلِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِمْ بِمُقْتَضَىٰ الرَّحْمَةِ فِي هَذَا الوَقْتِ الَّذِي يَغْلِبُ فِيهِ قِلَّةُ الـمَعَاصِي لِنَوْمِ أَكْثَرِ العُصَاةِ فِيهِ[3].

وَيُظْهِرُ تَعَالَىٰ هَذَا التَّنَزُّلَ الـمَعْنَوِيَّ وَجَمِيلَ هَذِهِ الـمُعَامَلَةِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ إِلَىٰ أَنْ يَنْتَهِيَ ظُهُورُهُ إِلَىٰ مَلَائِكَةِ سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْمَعُونَ مِنْهُ تَعَالَىٰ عِنْدَ

---

(1) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: قَوْلُهُ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا**» اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ أَثْبَتَ الجِهَةَ وقال: هِيَ جِهَةُ الْعُلُوِّ. وَأنكر ذَلِك الجُمْهُورُ؛ لِأَنَّ القَوْلَ بِذَلِكَ يُفْضِي إِلَىٰ التَّحَيُّزِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ (فتح الباري، ج3/ ص31)

(2) ويشهد له أيضا ما أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة، عن أبي هريرة وأبي سعيد يقولان: قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حتىٰ يمضي شطرُ الليل الأول، ثم يأمر مناديًا ينادي يقول: هل من داعٍ يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له، هل من سائل يعطىٰ**». (عمل اليوم والليلة، ص 340 طبعة مؤسسة الرسالة)

(3) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: الحَاصِلُ أَنَّهُ تَأَوَّلَهُ بِوَجْهَيْنِ: إِمَّا بِأَنَّ الْمَعْنَىٰ: يَنْزِلُ أَمْرُهُ أَوِ المَلَكُ بِأَمْرِهِ، وَإِمَّا بِأَنَّهُ اسْتِعَارَةٌ بِمَعْنَىٰ التَّلَطُّفِ بِالدَّاعِينَ وَالإِجَابَةِ لَهُمْ وَنَحْوِهِ. (فتح الباري، ج3/ ص31)

هَذَا التَّنَزُّلِ فِي هَذَا الوَقْتِ مَا ذُكِرَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ» إِلَىٰ آخِرِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِمُرَادِ نَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِذَا أَحَبَّ عَبْدِي لِقَائِي أَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَإِذَا كَرِهَ لِقَائِي كَرِهْتُ لِقَاءَهُ»[1]

الحُبُّ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَعْنَىٰ المَيْلِ وَالأُنْسِ وَالإِلْتِذَاذِ بِلِقَاءِ المَحْبُوبِ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَكَذَا الكَرَاهَةُ مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا بِمَعْنَىٰ النُّفْرَةِ وَالوَحْشَةِ وَالتَّأَلُّمِ وَالثِّقْلِ بِلِقَاءِ المَكْرُوهِ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المَعْنِيُّ: إِذَا عَامَلَنِي عَبْدِي مُعَامَلَةَ مَنْ أَحَبَّ لِقَائِي بِأَنْ يَجْتَهِدَ فِي طَاعَتِي وَيَزْهَدَ[2] فِي الدُّنْيَا وَالشَّهَوَاتِ وَكُلِّ مَا يَقْتَضِي حُبَّهُ لِلِقَاءِ غَيْرِي، وَأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ المَوْتِ الَّذِي يَلْقَىٰ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، عَامَلْتُهُ أَنَا مُعَامَلَةَ مَنْ يُحِبُّ لِقَاءَهُ؛ بِأَنْ أُقَرِّبَ عَلَيْهِ المَوْتَ بِتَقْصِيرِ أَمَلِهِ، وَأُسَهِّلَ مَشَاقَّهُ عَلَيْهِ بِمَا يَسْمَعُهُ مِنَ البَشَائِرِ عِنْدَهَا، وَمَا يَرَاهُ مِنَ الكَرَامَاتِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ حَتَّىٰ يَطِيرَ قَلْبُهُ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]. رقم (7504)

(2) **السَّنوسيُّ**: الزهدُ: خلوُّ الباطن من الميل إلىٰ فانٍ، وفراغُ القلب من الثقة بزائلٍ، وإن كانت اليدُ مغمورةً بمتاع حلالٍ فعلىٰ سبيل العارية المحضَة، وتصرُّفه فيه بالإذن الشرعي تصرُّفَ الوكالة الخالصة، ينتظر العَزْلَ عن ذلك التصرُّفِ بالموت أو غيره مع كل نَفَسٍ، وذلك ينفي عن النَّفْس التعلّق بما لا بدّ من زواله. (شرح أم البراهين، ص230، مطبوع بهامش حاشية الدسوقي عليه)

بِسَبَبِ ذَلِكَ اشْتِيَاقًا إِلَىٰ رُؤْيَةِ مَوْلَاهُ، وَتَقُولَ رُوحُهُ لِحَمَلَتِهِ إِلَىٰ القَبْرِ: «قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي».

وَإِذَا عَامَلَنِي عَبْدِي مُعَامَلَةَ مَنْ كَرِهَ لِقَائِي، بِأَنِ اشْتَغَلَ بِمَا يَقْتَضِي البُعْدَ وَالغَضَبَ مِنْ مَعْصِيَتِي، وَالرُّكُونِ إِلَىٰ عَاجِلِ الشَّهَوَاتِ، وَنَسِيَ المَوْتَ وَالآخِرَةَ، عَامَلْتُهُ أَنَا مُعَامَلَةَ مَنْ كَرِهَ لِقَائِي بِأَنْ بَعَّدْتُ عَنْهُ المَوْتَ بِتَطْوِيلِ أَمَلِهِ، وَكَرَّهْتُ لَهُ المَوْتَ وَاللِّقَاءَ بِمَا يَرَىٰ مِنْ عَلَامَاتِ الغَضَبِ وَشِدَّةِ العَذَابِ عِنْدَ المَوْتِ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ شَيْءٌ حِينَئِذٍ أَكْرَهَ عِنْدَهُ مِنَ المَوْتِ وَاللِّقَاءِ، وَتَقُولَ رُوحُهُ لِحَمَلَتِهِ إِلَىٰ القَبْرِ: «يَاوَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا».

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ لَوَازِمِ المَحَبَّةِ وَالكَرَاهَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ المُلُوكِ لَمْ يَكُنْ لَهُ شُغْلٌ إِلَّا بِالتَّجَمُّلِ لِلِقَائِهِمْ وَالاسْتِعْدَادِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِإِعْدَادِ مَا يُوجِبُ رِضَاهُمْ عَنْهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَائَهُمْ لَمْ يَشْتَغِلْ إِلَّا بِأَضْدَادِ ذَلِكَ حَتَّىٰ يُسَاقَ إِلَىٰ المَلِكِ سَوْقَ الجُنَاةِ لِيُنَفِّذَ فِيهِ مَا يَأْمُرُ بِهِ المَلِكُ مِنَ العُقُوبَاتِ.

هَذَا كُلُّهُ إِذَا جَعَلْنَا «مَنْ» شَرْطِيَّةً، وَأَنَّ الحُبَّ مِنَ العَبْدِ لِلِقَاءِ اللَّهِ سَبَبٌ فِي حُبِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِقَاءَهُ، وَأَمَّا إِنْ عَكَسْنَا وَجَعَلْنَا حُبَّ اللَّهِ لِلِقَاءِ عَبْدِهِ هُوَ السَّبَبَ فِي حُبِّ العَبْدِ لِقَاءَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِمَا يُكْرِمُهُ بِهِ بَعْدَ المَوْتِ، تَعَيَّنَ حِينَئِذٍ أَنْ تَكُونَ «مَنْ» مَوْصُولَةً، لَا شَرْطِيَّةً، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

بَابُ كَلَامِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: **«إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ»**[1]

تَأَوَّلْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلَا فَائِدَةَ فِي إِعَادَتِهِ[2].

قَوْلُهُ: **«ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ»**[3]

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الهَزُّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ وَالبِحَارِ وَالمِيَاهِ وَالثَّرَىٰ كِنَايَةً عَنْ إِخْرَاجِ جَمِيعِ مَا فِي أَجْوَافِهَا مِنَ الحَيَوَانَاتِ وَمِنَ الخَلَائِقِ بِتَحْرِيكِ جَمِيعِهَا لِلْحُضُورِ فِي أَرْضِ المَوْقِفِ لِتَرَىٰ مَا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمِيعُهَا قَبْلَ ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ هَامِدًا[4] لَا حَرَاكَ لَهُ.

وَفِي إِخْبَارِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِوُقُوعِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ وَتَخْيِيلِهِ فِي النُّفُوسِ بِهَذِهِ الاسْتِعَارَةِ المُكَنِّيَةِ وَالتَّخْيِيلِيَّةِ لِيَسْعَدَ العَاقِلُ بِالنَّجَاةِ مِنْ هَوْلِ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الربِّ تعالىٰ يومَ القيامة مع الأنبياء وغيرهم. رقم (7513) عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء حبرٌ من اليهود فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات علىٰ إصبع، والأرضين علىٰ إصبع، والماء والثرىٰ علىٰ إصبعٍ، والخلائق علىٰ إصبع، ثم يهزّهنّ ثم يقول: أنا الملك، أنا الملكُ، فلقد رأيتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحكُ حتىٰ بدت نواجذهُ تعجُّبا وتصديقًا لقوله، ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

(2) في (أ): تقدم تأويل ذلك.

(3) التخريج السابق.

(4) في (أ): بياض بمقدار كلمة بدل «هامدا»

هَذَا اليَوْمِ الثَّقِيلِ بِمُلَازَمَةِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالهُرُوبِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَكُلِّ شَاغِلٍ يَشْغَلُ عَنْ رِضَاهُ بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِهِ مَا دَامَ حَيًّا.

قَوْلُهُ: «يدنُو[1] أحدُكُمْ منْ ربِّه حتَّى يضعَ كنَفهُ[2] عليْه»[3]

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الدُّنُوُّ مَعْنَوِيًّا، أَيْ: دُنُوَّ رَحْمَةٍ وَإِفْضَالٍ عَلَيْهِ مِنَ المَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، حَتَّىٰ يَضَعَ كَنَفَهُ - أَيْ: سِتْرَهُ - عَلَيْهِ، بِحَيْثُ يَحْجُبُ سُبْحَانَهُ عَنْ سَمَاعِ خِطَابِهِ لَهُ كُلَّ المَخْلُوقَاتِ.

---

(1) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل الحجّ والعمرة ويوم عرفة، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلَائِكَةَ**». قال الإمام **السنوسيُّ**: أي: تدنُو رَحْمَتُه وكرامَتُهُ؛ إذ لما كان الحجُّ عرَفةَ، والحجُّ يهدم ما قبله، كان في يوم عرفة من الخلاص من العذاب والعتق من النار أكثر ما يكون في سائر الأيام، ولما كان الناس يتقربون إلىٰ الله في ذلك اليوم بأعظم القربات، والله سبحانه ينيلهم فيه من أنواع البرور واللطف ما ينيلهم في سائر الأيام، عبّر عن هذا المعنىٰ بالدنوِّ منهم في الموقف، أي: لَيَدْنُو منهم بفضله ورحمته، ثم يباهي بهم، أي: يفاخر. والمعنىٰ أنه يحلّهم من قربه ومكانته محل الشيء المباهىٰ به. (مكمل الإكمال، ج3/ ص443)

(2) **عياض**: الكنَفُ: السّتر. فـ«يضع عليه كنفه» أي: ستره فلا يكشفه بها علىٰ رؤوس الأشهاد، بدليل قوله بعد: « سترتها عليك في الدنيا». وقد يكون كنفه هنا: عفوه ومغفرته، وحقيقة المغفرة في اللغة: الستر والتغطية. (راجع مشارق الأنوار، ج1/ ص343)

البيضاوي: «كنَفُهُ»: حفظُه وستره عن أهل الموقف، وصَوْنُه عن الخِزْيِ والتفضيحِ، مستعارٌ من كنف الطائر وهو جناحه الذي يصون به نفسه ويُسِرُّ به بيضه فيحفظُه. (تحفة الأبرار، ج3/ ص 399)

(3) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[هود: ١٨] رقم (4685)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الدُّنُوُّ حِسِّيًّا، فَيُحْمَلُ عَلَىٰ دُنُوِّهِ مِنْ مَحَلٍّ شَرِيفٍ أَسْمَعَهُ الـمَوْلَىٰ جَلَّ وَعَلَا فِيهِ خِطَابَهُ، وَأَبْعَدَهُ فِي ذَلِكَ الـمَوْضِعِ عَنْ مَوْقِفِ غَيْرِهِ حِسًّا كَمَا أَبْعَدَهُمْ عَنْ سَمَاعِ خِطَابِهِ لَهُ مَعْنًىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالمُرَادِ.

باب ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]

قَوْلُهُ: «وَدَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ، فَتَدَلَّى حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»[1].

الدُّنُوُّ عَلَىٰ اللهِ بِمَعْنَىٰ الحَرَكَةِ وَالقُرْبِ بِالـمَسَافَةِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الأَجْرَامِ الحَادِثَةِ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دُنُوُّهُ تَعَالَىٰ لِـمُصْطَفَاهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَعْنَىٰ دُنُوِّ التَّأْنِيسِ لِقَلْبِهِ، وَتَسْهِيلِ مُشَاهَدَةِ ذَاتِهِ العَلِيَّةِ بِمَا مَلَأَ بِهِ قَلْبَهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ جَمَالِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَطَوَىٰ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُطَالَعَةَ جَبَّارِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ وَكِبْرِيَائِهِ.

وَ«تَدَلَّىٰ لَهُ» أَيْ: نَزَلَ عَنْ مُعَامَلَتِهِ بِمُقْتَضَىٰ الجَبَّارِيَّةِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالجَلَالِ إِلَىٰ مُعَامَلَتِهِ بِمُقْتَضَىٰ الجَمَالِ وَالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ وَالإِفْضَالِ، وَزَادَ فِي تَقْرِيبِهِ

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] رقم (7517) قال الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني: قوله: «**وَدَنَا الجَبَّارُ فتَدَلَّىٰ حَتَّىٰ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ**» حَمْلُه علىٰ جبريل لا يرضاه من له قدَمٌ في العربية، ولقد أحسن القاضي عياض رحمه الله في قوله: «القربُ والدنوُّ إلىٰ الله أو من الله ليس دنوَّ مكانٍ، بل بالنظر إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إشارةٌ إلىٰ شرف محلّه وعظم منزلته عند الله، ومِنَ الله تعالىٰ تأنيسُ رسوله وإكرامُه. وهذا كما تقدَّم من قوله: «**من تقرَّب إليّ شبرًا**»، وله نظائر فوق الحد، بل الآيات وأحاديث الصفات كلها من هذا القبيل. (الكوثر الجاري، ج11/ ص515)

بِهَذِهِ الـمُشَاهَدَةِ الجَلِيلَةِ حَتَّىٰ كَانَ فِي عَظِيمِ أُنْسِهِ بِهِ وَوُضُوحِ مُشَاهَدَتِهِ لِذَاتِهِ العَلِيَّةِ وَسَمَاعِهِ لِخِطَابِهِ الأَعْلَىٰ نَظِيرَ مَنْ جَاءَ مِنَ العَبِيدِ لِـمَلِكٍ مِنَ الـمُلُوكِ وَذَلِكَ العَبْدُ يَعِزُّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ الـمَلِكِ، فَتَنَزَّلَ لَهُ عَنْ أَعْلَا قَصْرِهِ الَّذِي يَتَعَذَّرُ مَعَهُ وُضُوحُ ذَاتِهِ لَهُ عَلَىٰ التَّمَامِ وَسَمَاعِ خِطَابِهِ عَلَىٰ الكَمَالِ، وَصَارَ يَقْرُبُ مِنْهُ فِي تَنَزُّلِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، حَتَّىٰ كَانَ مَعَهُ فِي القُرْبِ بِالـمَكَانِ قَدْرَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَحِينَئِذٍ يَتَمَتَّعُ بِكَمَالِ مُشَاهَدَتِهِ أَعْلَىٰ تَمَتُّعٍ، وَيَزُولُ عَنْهُ بِهَذَا القُرْبِ كُلُّ لَبْسٍ، وَيَطِيرُ عَنْهُ بِمَا تَحَقَّقَ وَاتَّضَحَ لَهُ كُلُّ هَمٍّ وَغَمٍّ وَوَحْشَةٍ وَتَعَبٍ، وَتَحَقَّقَ خِطَابُهُ حِينَئِذٍ، وَوَثَقَ بِهِ كُلَّ الوُثُوقِ لِقُرْبِهِ مِنْهُ غَايَةَ القُرْبِ، وَيَثِقُ بِهِ أَيْضًا مَنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ الخِطَابُ عَنِ الـمَلِكِ مِنْ سَائِرِ عَبِيدِهِ.

فَلَوَازِمُ هَذَا القُرْبِ الحِسِّيِّ هِيَ الَّتِي اسْتُعِيرَ لَهَا العِبَارَةُ الـمَوْضُوعَةُ لِلْقُرْبِ الحِسِّيِّ تَقْرِيبًا لِفَهْمِ تِلْكَ اللَّوَازِمِ الكَثِيرَةِ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ، وَهُوَ لَفْظُ مَلْزُومِهَا الَّذِي يَحْضُرُ فِي الذِّهْنِ جَمِيعُهَا، وَلِلتَّنَزُّلِ عَنْ مُقْتَضَىٰ الجَبَّارِيَّةِ وَالعِزَّةِ عَبَّرَ بِقَوْلِهِ «**وَدَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ**».

«فَتَدَلَّىٰ» أَيْ: قَرُبَ إِلَىٰ مُصْطَفَاهُ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَدَلِّيهِ لَهُ عَنْ مُقْتَضَىٰ الجَبَّارِيَّةِ وَالعِزَّةِ، وَيَكُونُ هَذَا الحَدِيثُ نَظِيرَ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ**»، وَفِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ كَامِلٌ لِلصَّلَوَاتِ وَتَوْثِيقٌ فِي غَايَةٍ لِوُجُوبِهَا، وَلِكُلِّ مَا بَلَّغَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَمْرِهَا.

هَذَا مَا ظَهَرَ لِي فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ، وَلِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ تَأْوِيلَاتٌ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِالْـمُرَادِ.

قَوْلُهُ: «فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ»[1].

يَعْنِي: ارْجِعْ إِلَىٰ طَلَبِهِ وَمُنَاجَاتِهِ. أَوْ: اِرْجِعْ إِلَىٰ الْـمَحَلِّ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يُسْمِعَكَ خِطَابَهُ فِيهِ وَوَحْيَهُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

وَبَاقِي الأَبْوَابِ تَقَدَّمَ تَأْوِيلُ مُشْكِلِهَا[2]، وَاللهُ سُبْحَانَهُ الْـمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَـمِينَ.



(1) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] رقم (7517).

(2) في (ب): والله تعالىٰ هو الموفق بفضله وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. كمل بفضل الله تعالىٰ علىٰ يد كاتبه لنفسه الفقير محمد بن أبي الفضل خروف التونسي تاب الله تعالىٰ عليه، وذلك عند فجر يوم السبت تاسع عشر من ربيع الثاني من عام 949 عرفنا الله تعالىٰ خيره وما بعده بمنه وكرمه، وكان النسخ بمدينة فاس حماها الله تعالىٰ.

شَرْحُ أَبْيَاتٍ لبَعْضِ السَّادَاتِ

تصنيف الإمام

أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني

(832 ـ 895هـ)

اعتنى به

نزار حمّادي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وآله

قال الشيخ السنوسي رحمه الله تعالى

هذا تعليق على قول بعض السادات رضي الله تعالى عنهم أجمعين

رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ قَلْبِي … فَقُلْتُ لَا شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ
أَنْتَ الَّذِي حُزْتَ كُلَّ أَيْنٍ … فَحَيْثُ لَا أَيْنَ ثَمَّ أَنْتَ
وَلَيْسَ لِلْأَيْنِ مِنْكَ أَيْنٌ … فَيَعْلَمُ الْأَيْنُ أَيْنَ أَنْتَ
وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فِيكَ وَهْمٌ … فَيَعْلَمُ الْوَهْمُ كَيْفَ أَنْتَ
أَحَطْتَ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ … وَكُلُّ شَيْءٍ تَرَاهُ أَنْتَ
فَمُنَّ بِالْعَفْوِ يَا إِلَهِي … فَلَيْسَ أَرْجُو سِوَاكَ أَنْتَ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ[1].

قَوْلُهُ: **(رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ قَلْبِي)**

يَعْنِي: عَرَفْتُهُ بِوُجُودِهِ[2] وَمَا يَجِبُ لَهُ وَمَا يَسْتَحِيلُ[3] وَمَا يَجُوزُ بِبَصِيرَةِ قَلْبِيَ الَّتِي هِيَ عَيْنُ القَلْبِ، وَهُوَ الجُزْءُ مِنْهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ العِلْمُ وَالفِكْرَةُ الصَّحِيحَةُ المُصِيبَةُ[4].

وَقَوْلُهُ: **(فَقُلْتُ لاَ شَكَّ أَنْتَ أَنْتَ)**

يَعْنِي: فَقُلْتُ بِقَلْبِي لَمَّا أَنْ عَرَفْتُهُ بِالبُرْهَانِ[5] القَاطِعِ[6]، وَتَمَيَّزَ[7] لِي عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ: لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ أَنْتَ يَا مَوْلَايَ هُوَ المَوْصُوفُ بِهَذِهِ المَحَاسِنِ الَّتِي أَبْصَرَتْهَا بِالبُرْهَانِ[8] عَيْنُ قَلْبِي.

وَإِنَّمَا رَتَّبَ القَوْلَ[9] عَلَىٰ رُؤْيَةِ القَلْبِ - وَهِيَ مَعْرِفَتُهُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ - تَنْبِيهًا عَلَىٰ أَنَّ حُصُولَ الإِيمَانِ هُوَ عِنْدَ حُصُولِ المَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ - عَلَىٰ الأَصَحِّ - هُوَ حَدِيثُ النَّفْسِ التَّابِعُ لِلْمَعْرِفَةِ، لَا نَفْسُ المَعْرِفَةِ، خِلَافًا لِلشَّيْخِ الأَشْعَرِيِّ.

---

(1) الخطبة ليست في (أ)

(2) في (ب): عرفت وجوده

(3) وما يستحيل: ليست في (أ)

(4) في (ب): الفكرة المضيئة الصحيحة.

(5) في (ب): بالبراهين

(6) ليست في (ب)

(7) في (أ): وتبيّن

(8) في (ب): أبصرها بالبراهين

(9) ليست في (أ)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ بِرُؤْيَةِ عَيْنِ القَلْبِ المَعْرِفَةُ الذَّوْقِيَّةُ الَّتِي هِيَ آخِرُ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «أَنْتَ أَنْتَ» أَيْ: أَنْتَ الآنَ بِحَسَبِ المَعْرِفَةِ الذَّوْقِيَّةِ هُوَ أَنْتَ أَوَّلاً بِحَسَبِ المَعْرِفَةِ الرَّسْمِيَّةِ الَّتِي أَنْتَجَتْهَا البَرَاهِينُ العَقْلِيَّةُ؛ إِذْ عَلَامَةُ صِحَّةِ الذَّوْقِ أَنْ يَجْرِيَ[1] عَلَىٰ وَفْقِ مَا شَهِدَ بِهِ العِلْمُ الرَّسْمِيُّ.

وَلِهَذَا يَسْتَعِيذُ المُؤْمِنُونَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لَهُمْ فِي المَوْقِفِ عَلَىٰ صِفَةِ الحَوَادِثِ، فَتَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا[2] رَبُّنَا، أَوْ حَتَّىٰ يَظْهَرَ لَنَا عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي عَرَفْنَاهُ بِهَا مِنَ التَّنَزُّهِ عَنْ سِمَاتِ الحَوَادِثِ كُلِّهَا، وَلِهَذَا لَمَّا رَأَوْهُ عَلَىٰ مَا يَجِبُ لَهُ تَعَالَىٰ خَرُّوا سُجَّدًا.

وَتِلْكَ الفِتْنَةُ فِي الآخِرَةِ هِيَ آخِرُ الفِتَنِ الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا المُؤْمِنُ ـ العَارِفُ بِمَا يَجِبُ لِمَوْلَانَا وَمَا يَجُوزُ وَمَا يَسْتَحِيلُ ـ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ضَرَرِ تِلْكَ الفِتْنَةِ إِلَّا مَنْ أَتْقَنَ عَقَائِدَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَأُسْعِدَ بِالمَمَاتِ عَلَىٰ ذَلِكَ.

نَسْأَلُ اللَّهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّ كُلِّ مِحْنَةٍ دُنْيَا وَأُخْرَىٰ، بِجَاهِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ: (أَنْتَ الَّذِي حُزْتَ كُلَّ أَيْنٍ)

أَيْ: أَنْتَ الَّذِي أَحَطْتَ بِكُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْعَوَالِمِ عِلْمًا وَمُلْكًا وَتَدْبِيرًا، أَيْ: كُلُّ العَوَالِمِ وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا لَا يُشَارِكُكَ فِي مُلْكِهَا وَلَا تَدْبِيرِهَا أَحَدٌ عُمُومًا؛

---

(1) في (ب): يجيء

(2) في (ب): يأتي

لِأَنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ العَوَالِـمِ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَكَانًا لِـجُزْءٍ آخَرَ لِيَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ[1]، فَالأَيْنُ إِذًا صَادِقٌ بِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ العَوَالِـمِ، فَحَوْزُهُ لِكُلِّ أَيْنٍ بِالـمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ وَالعِلْمِ وَالقَهْرِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ مُلْكِهِ لِكُلِّ العَوَالِـمِ وَتَدْبِيرِهِ لِشُؤُونِهَا، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: **(فَحَيْثُ لاَ أَيْنَ ثَمَّ أَنْتَ.)**

أَشَارَ بِـ«ثَمَّ» إِلَىٰ الـمَرْتَبَةِ الَّتِي تُنَزَّهُ عَنِ الأَيْنِ، وَهِيَ مَرتَبَةُ الْإِلَـهِ الحَقِّ الَّذِي يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الجِرْمِيَّةُ[2] وَالعَرَضِيَّةُ[3] الـمَلْزُومَيْنِ لِقَبُولِ الأَيْنِ، وَهِيَ الَّتِي أَرَادَ أَيْضًا بِقَوْلِهِ: «حَيْثُ»، أَيْ: أَنْتَ يَا مَوْلَايَ فِي الـمَرْتَبَةِ الَّتِي تُنَزَّهُ عَنِ الجِرْمِيَّةِ وَالعَرَضِيَّةِ وقَبُولِ الأَيْنِ الَّذِي هُوَ مِنْ خَوَاصِّ العَوَالِـمِ الحَادِثَةِ الَّتِي حُزْتَ جَمِيعَهَا خَلْقًا وَمُلْكًا وَتَدْبِيرًا، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ يَا مَوْلَايَ فِي مَرْتَبَةٍ تُشْبِهُ[4] مُلْكَكَ؟!

---

(1) يصلح.. عليه: ليس في (أ)

(2) أي: يستحيل أن يكون تعالىٰ علىٰ صفة الجِرْم ـ بكسر الجيم ـ وهو ما يملأ قدرًا من الفراغ يكون محصورًا فيه كالأجسام المخلوقة بعد العدم.

(3) أي: يستحيل أن يكون تعالىٰ علىٰ صفة العَرَض ـ بفتح العين والراء ـ وهو الصفة التي تقوم بالجرم وتكون مفتقرة إليه وتوجَد تارةً وتُعدَم أخرىٰ كالحركة والسكون والألوان وغيرها، فيتنزَّه مولانا ـ جَلَّ وعَلاَ ـ بدليل العقل والنقل أن يكون عَرَضًا مفتقِرًا إلىٰ جِرم يُوجَدُ فيه، فكل ذلك من صفات المخلوقات التي أوجدها الله تعالىٰ بعد العدم.

(4) في (أ): شبه

فَأَنْتَ إِذًا يَا مَوْلَايَ فِي مَرْتَبَةٍ لَا يَصِحُّ[1] فِيهَا أَيْنٌ، وَهِيَ مَرتَبَةُ كَونِكَ الوَاحِدَ الأَحَدَ الفَرْدَ الصَّمَدَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَم يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفؤًا أَحَدٌ.

وَلِهَذَا أَشَارَ إِلَىٰ هَذِهِ المَنْزِلَةِ العَدِيمَةِ المِثَالِ بِقَوْلِهِ:

(وَلَيْسَ لِلأَيْنِ مِنكَ أَيْنٌ)

يَعْنِي: إِنَّكَ يَا مَوْلَايَ لَمَّا تَنَزَّهْتَ عَنِ التَّحَيُّزِ[2] وَصِفَاتِ الأَجْرَامِ مِنْ قَبُولِ الأَيْنِ وَالجِهَاتِ، لَمْ يَكُنْ لِلأَيْنِ مِنْكَ أَيْنٌ، أَيْ: لَمْ يَكُنْ لِلَفْظِ الأَيْنِ مِنْكَ أَيْنٌ[3] وَلَا لِمَعْنَاهُ، وَالسُّؤَالُ بِهِ مِنْ جِهَةِ جَلَالِكَ مُحَالٌ، وَلَا يُسَلَّمُ الكَلَامُ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: أَيْنَ أَنْتَ؟ بَلْ يُعتَرَضُ ذَلِكَ الكَلَامُ وَيُبْطَلُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِهِ صَاحِبُهُ غَيْرَ مَعْنَىٰ الأَيْنِ الحَقِيقِيِّ، وَيَنْصِبُ قَرِينَةً عَلَىٰ مُرَادِهِ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلسَّوْدَاءِ: «أَيْنَ اللهُ؟»[4]، فَإِنَّهُ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَلِكَ اخْتِبَارًا لَهَا هَلْ هِيَ مِنَ المُشْرِكَاتِ وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ الَّتِي مَحَلُّهَا فِي الأَرْضِ وَوُجِدَ تَعْظِيمُهَا فِيهَا فَقَطْ؟

---

(1) في (ب): لا يصلح

(2) التحيُّز: هو الكون في الحيِّز، والحَيِّزُ: هو قَدرٌ من الفراغ يملأه الجسمُ. ولا يتصف بالتحيُّز إلا المخلوق بعد العدم.

(3) منك أين: ليس في (ب)

(4) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته.

فَأَجَابَتْ هِيَ بِأَنَّ مَعْبُودَهَا لَيْسَ الَّذِي يُعَظَّمُ فِي الأَرْضِ فَقَطْ وَهِيَ الأَصْنَامُ، وَإِنَّمَا مَعْبُودُهَا اللهُ، فِي السَّمَاءِ لَا يُعَظَّمُ فِيهَا غَيْرُهُ، بِخِلَافِ الأَرْضِ فَإِنَّهُ قَدْ عُبِدَ فِيهَا مَوْلَانَا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وَعُبِدَ فِيهَا غَيرُه.

وَلِهَذَا لَمْ تُشِرْ إِلَىٰ الأَرْضِ لِـمَا فِي ذَلِكَ مِنَ اللَّبْسِ لِاخْتِلَاطِ الـمَعْبُودِ الحَقِّ فِيهَا بِالـمَعْبُودَاتِ البَاطِلَةِ فِي العِبَادَةِ، وَلَا كَذَلِكَ السَّمَاءُ، فَكَأَنَّهَا أَجَابَتْ بِأَنَّ مَعْبُودَهَا اللهُ الَّذِي تَعْبُدُه الـمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أَيْ: مَعْبُودٌ فِيهِمَا، وَقَدَّمَ السَّمَاءَ لِشَرَفِهَا وَعَدَمِ الاشْتِرَاكِ فِيهَا.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ «أَيْنَ اللهُ؟» أَيْ: أَيْنَ مَنْزِلَتُهُ فِي قَلْبِكِ؟ هَلْ هُوَ مِثْلُ مَنْزِلَتِهِ فِي قُلُوبِ الـمُشْرِكِينَ مِنْ تَسْوِيَتِهِمْ لَهُ تَعَالَىٰ مَعَ مَخْلُوقَاتِهِ فِي الأُلُوهِيَّةِ، فَأَهَانُوا مَنْصِبَ الأُلُوهِيَّةِ الأَعْلَىٰ وَتَلَاعَبُوا بِهِ حَيْثُ[1] أَثْبَتُوهُ لِـمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ عَقْلاً وَلَا نَقْلاً مِنْ بَعْضِ الحَيَوَانَاتِ وَالجَمَادَاتِ.

كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]، فَذَكَرَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَفْعَالَهُ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا كُلُّ مَا سِوَاهُ فَلَا يَفْعَلُهَا لَا بِالحَقِيقَةِ وَلَا بِالـمَجَازِ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنْعُمِ الـمَوْلَىٰ العَظِيمِ وَجَحَدُوا دَلَائِلَ وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَنَزُّهِهِ تَعَالَىٰ عَنِ الشَّرِيكِ فِي ذَاتِهِ

---

(1) في (ب): حين

وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ يَعْدِلُون بِهِ غَيْرَهُ، أَيْ: يُسَاوُونَ بِهِ غَيْرَهُ، وَأَتَىٰ بِـ«ثُمَّ» لِاسْتِبْعَادِ صُدُورِ[1] هَذِهِ الرَّذِيلَةِ مِنَ العُقَلَاءِ.

فَأَجَابَتْ تِلْكَ السَّوْدَاءُ لِتَعذُّرِ النُّطْقِ مِنْهَا بِأَنَّ مَنْزِلَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عِنْدَهَا لَيْسَ كَمِثْلِ مَنْزِلَتِهِ فِي قُلُوبِ الـمُشْرِكِينَ مِنْ عَدَمِ التَّعْظِيمِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهَا فِي الرِّفْعَةِ وَالجَلَالَةِ فِي السَّمَاءِ الأَعْلَىٰ لَا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَىٰ قَدْرِهِ وَلَا إِلَىٰ التَّشَبُّهِ بِهِ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا عَظَّمُوا أَحَدًا فِي غَايَةِ التَّعْظِيمِ قَالُوا فِي التَّعْبِيرِ فِي ذَلِكَ: فُلَانٌ أَرَاهُ فِي السَّمَاءِ الأَعْلَىٰ، وَنَجْمًا فِي السَّمَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: **(فَيَعْلَمَ الأَيْنُ أَيْنَ أَنْتَ)**

هَذَا كَلَامٌ مُرَتَّبٌ عَلَىٰ نَفْيٍ، وَلِهَذَا يُنْصَبُ الـمُضَارِعُ، أَيْ: لَا أَيْنَ لَكَ لَا بِالقَبُولِ وَلَا بِالحُصُولِ فَيَعْلَمَ ذَلِكَ الأَيْنُ بِكُنْهِ ذَاتِكَ، إِذِ الأَيْنُ يَعْلَمُ بِأَنَّ كُلَّ مَا حَلَّ فِيهِ فَهُوَ مِنَ الأَجْرَامِ الكَثِيرَةِ الأَمْثَالِ، فَلَا خَفَاءَ إِذًا لِذَاتٍ لَهَا أَيْنٌ.

قَوْلُهُ: **(وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ مِنْكَ وَهْمٌ)**

مُرَادُه بِالوَهْمِ هُنَا إِدْرَاكٌ يُقَدِّرُ[2] أُمُورًا مِنَ الأَجْرَامِ وَالأَعْرَاضِ، مِنْهَا مَا كَانَ وَمِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ، وَبِالجُمْلَةِ فَهُوَ إِدْرَاكٌ لَا يَخُوضُ إِلَّا فِي جِنْسِ الأَجْرَامِ وَجِنْسِ أَعْرَاضِهَا.

وَلَمَّا تَنَزَّهَ الـمَوْلَىٰ العَظِيمُ أَنْ يُمَاثِلَ شَيْئًا مِمَّا سِوَاهُ مِنْ أَجْنَاسِ الأَجْرَامِ[1] وَأَجْنَاسِ الأَعْرَاضِ عُمُومًا، قُصَّتْ أَجْنِحَةُ الوَهْمِ وَرَجَعَ خَاسِئًا لا يَقْدِرُ أَنْ

---

(1) في (أ): ظهور

(2) ليست في (أ)

يَلْمَحَ[2] الذَّاتَ العَلِيَّةَ وَلَا صِفَاتِهَا لِأَنَّ ذَلِكَ الجَلَالَ العَدِيمَ الـمِثَالِ[3] خَارِجٌ وَبَعِيدٌ غَايَةَ البُعْدِ عَنْ جِنْسِ عِشِّهِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (**فَيَعْلَمُ الوَهْمُ كَيْفَ أَنْتَ**)

هَذَا أَيْضًا مُرَتَّبٌ عَلَىٰ النَّفْيِ الَّذِي قَبْلَهُ، يَعْنِي أَنَّهُ لَـمَّا اسْتَحَالَ ارْتِسَامُ ذَاتِكَ العَلِيَّةَ وَصِفَاتِكَ الجَلِيلَةَ الـمُرَفَّعَةَ فِي وَهْمٍ مِنَ الأَوْهَامِ، لَمْ يَكُنْ لِلْوَهْمِ عِلْمٌ بِذَلِكَ الجَلَالِ، وَإِنَّمَا العَقْلُ وَحْدَهُ أَدْرَكَ مِنْ ذَلِكَ الجَلَالِ عَلَىٰ الجُمْلَةِ مَا شَهِدَتْ بِهِ العَوَالِمُ، وَغَضَّ الطَّرْفَ عَجْزًا عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (**أَحَطْتَ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ**)

يَعْنِي أَنَّ الـمَوْلَىٰ العَظِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِكُلِّ مَا سِوَاهُ، لَا يُحِيطُونَ عِلْمًا بِكُنْهِ ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِنَزْرٍ[4] يَسِيرٍ مِنَ العِلْمِ يَنْتَفِعُونَ مَعَهُ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ.

قَوْلُهُ: (**وَكُلَّ شَيْءٍ تَرَاهُ أَنْتَ**)

أَيْ: كُلَّ مَوْجُودٍ فَأَنْتَ تَرَاهُ، وَسَائِرُ الـمَوْجُودَاتِ حَجَبْتَهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ ذَلِكَ الجَلَالِ، إِلَّا أَنْ تَفْتَحَ لِـمَنْ شِئْتَ فِيمَا شِئْتَ[1] مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْدِيدٍ، فَهَذَا كُلُّهُ تَحْقِيقٌ لِعَظِيمِ مُلْكِهِ وَقَهْرِهِ كُلَّ مَا سِوَاهُ، وَعُبُودِيَّةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ لَهُ.

---

(1) في (أ): الجواهر

(2) في (أ): ظهور

(3) في (ب): الجلال العظيم

(4) في (أ): بنور

قَوْلُهُ: (فَمُنَّ بالعَفْوِ يَا إِلَهِي، فَلَيْسَ أَرْجُو سِوَاكَ أَنْتَ)

هَـذَا مُرَتَّبٌ عَلَىٰ العِلْـمِ وَالرُّؤْيَـةِ لِكُـلِّ مَوْجُـودٍ، وَمِـنْ جُمْلَـةِ الـمَوْجُودَاتِ الـمَعَاصِي الَّتِي تَقَـعُ مِـنَ العَبِيـدِ، وَقَـدْ عَلِمْتَ[2] أَنَّ الجَانِي إِذَا لَـمْ يَـرَ الـمَلِكُ جِنَايَتَهُ بِبَصَرِهِ[3] وَإِنَّمَا شُهِدَ عَلَيْهِ بِـذَلِكَ[4] رُبَّمَـا يَحْتَـالُ عَلَيْهِ بِإِنْكَارٍ وَتَجْرِيحٍ لِلشَّاهِدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَمَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّ الـمَلِكَ قَدْ رَأَىٰ جِنَايَتَهُ بِبَصَرِهِ، والفَرْضُ أَنَّهُ فِي قَبْضَةِ الـمَلِكِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ الحِيَـلُ كُلُّهَـا وَلَـمْ يُمْكِنْهُ إِلَّا النِّدَاءُ بِالوَيْلِ وَالثُّبُـورِ وَالتَّـضَرُّعِ بَـيْنَ يَـدَيِ الْـمَلِكِ وَالتَّـشَفُّعُ إِلَيْـهِ بِخَـوَاصِّ عَبِيـدِهِ وَبِذَاتِـهِ الـمُنَزَّهَةِ فِي طَلَبِ العَفْوِ، فَهَـذَا وَجْـهُ تَرْتِيـبِ هَـذَا الكَـلَامِ[5] بِـ«الفَـاءِ» عَلَىٰ مَا قَبْلَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ، لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

اللَّهُـمَّ اخْـتِمْ لَنَـا بِـالأَمْنِ وَالإِيمَـانِ وَالـسَّلَامَةِ وَالإِسْـلَامِ وَالـمَغْفِرَةِ لِـجَمِيعِ الـذُّنُوبِ بِـلَا مِحْنَـةٍ يَـا غَفُـورُ، بِجَـاهِ سَـيِّدِنَا مُحَمَّـدٍ صَـلَّىٰ اللهُ عَلَيْـهِ وَعَلَـىٰ آلِـهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

وكان الفراغ منه يوم الجمعة التاسع من صفر الخير سنة 1182 هـ علىٰ يد عثمان بن أحمد الورغي غفر الله له آمين.

---

(1) فيما شئت: ليس في (أ)

(2) في (أ): عرفت

(3) ليست في (ب)

(4) ليست في (أ)

(5) والتشفع... الكلام: ليس في (أ)

فهرس

